سلطان

(هشام عيد)

رواية للناشئة: سلطان

المؤلف: هشام عيد

تدقيق لغوي: شيماء غانم

تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

رسوم داخلية: نشوى عمران

رقم الإيداع: 17654 / 2019

الترقيم الدولي: 978/977-85492-9-4

الطبعة الأولى: 2019

رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد

المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com

تليفون : 01110161117

العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة

صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي

https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، و لا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

سلطان

(رواية للناشئة)

هشام عيد

إلى الذي لم يكن طفلًا يومًا؛ من عسر الطريق وكثرة الأحمال:

الأسطى عيد.

إلى الذي احتضنني على البعد:

رزق المزعنن.

إلى الدرويشة بهية القلب:

هالة البشبيشي.

وإلى من دللّتني وأسكرتني ووهبتني طفولة دائمة:

شهيرة.

وإلى المحتفظين بقلوب الأطفال في العالم.

كم كنت أرجو أن أقصّ قصةً صغيرةً عليك..

كقلبك الصغير،

وعمرك القصير،

لكنني انشغلت.

بمحنتي الكبيرة؛

تفاهة الحياة.

(١)

كان النهار مشرقًا على الربوة الخضراء.. مساحة ممتدة تنتهي بخط فاصل من النخيل، ثم منحدر ينتهي إلى خلاء شاسع. وأشجار قليلة نمت بلا جذوع، نجمت عن الأرض كالمفاجأة.. وغير بعيدٍ، كانت عين الماء.. أما البحر فكان بعيدًا جدًا.

لم يكن هناك صوت في هذا الهدوء الصافي إلا النغمات الناعمة التي تنبعث من ناي «مرْوان»، وهو فتى هادئ في الثانية عشرة من عمره، صبغت الشمس وجهه بسمرة لطيفة.. جلس مُسندًا ظهره إلى نخلةٍ عالية. بجواره صرةٌ وجرةٌ، في الصرة بعض طعام من خبز يابس وقطع من الجبن صنعتها أمه من لبن الماعز، وبالجرة الصغيرة بعض الماء.

قالت الشجرة: « هذا اللحنُ بسيط، لكنه جميل».

قالت أخرى: « من الذي قال إن الأشجار لا تطرب للموسيقا؟».

ابتسمت الشجرة وأسدلت بعض أوراقها فوق مرْوان لتمنحَه ظلًا أفضل.

على قدمَي الفتى الهادئ، استقرت نعجة صغيرة، كانت تختلف عن باقي النعاج لأنها صمّاء . أما بقية الأغنام، فرغم إنها كانت تنعم بالتجوال في المكان كما تشاء، إلا أنها آثرت . كعادتها . أن تتكوّم في دائرة ضيقة حول العشب، منحنية معظم الوقت، تأكل أو تَجترَّ ما أكلت في الصباح الباكر، وتستمع بين حين وآخر إلى الكبشين الكبيرين اللذين يتبادلان زعامة القطيع.

لم يكن متمتعًا بالحركة الحرة إلا الحملان الصغيرة التي لم تتعلم كيف تتبع قوانين القطيع بعد، تركض وتقفز بلا رقيب، تنتقل هنا وهناك في خطوات رشيقة أشبه بالوثبات، يحلو لبعضها أن يتناطح مزهوًا بقرنه النابت الصغير.

وبين الأغنام وحولها، كلبٌ ضخمٌ ذو خطم أسود، اسمه «سلطان». كان اسمه القديم «بوبوس»، لكنه أصبح «سلطان» منذ بدأ حراسة القطيع. يراقب المكان طوال الوقت، يرصد جميع التحركات.. قد يبدو لعينيك راقدًا، لكنه يقظ، يتشمم الخطر حيث كان.

كلما أراد سلطان الترفيه عن نفسه بعد فترات الحراسة، لاعَبَ الأغنامَ الصغيرة أو ركضَ نحو مرْوان؛ يطالبه بتخصيص وقت للعدْو واللعب. طريقته في طلب اللعب هي أن يدّبَ بإحدى قدميه في الأرض أو يجذبه من كم جلبابه ليبدآ البهجة. عندما يُرهق الفتى من عنف اللعب، يعود سلطان إلى الأغنام.

مع الأغنام، يكون أقل عنفًا، ولا ينسى أن يظل يقظًا. لا يلهيه لعبه عن دوره كحارس. ولا يظن نفسه خروفًا مثلهم.. مثل ذلك الأسد الشهير الذي قصّت أمه قصتَه عليه.

في المساء، يعشق سلطان القصص التي ترويها أمه، الكلبة المُعمّرة.. كان يحب أن يسمع منها قصة «الأسد الذي ظنّ نفسه خروفًا» على وجه الخصوص:

«كان هذا الأسد شبلًا رضيعًا مُلقىً في الغابة، ماتت أمه اللبؤة وهي تلده، هاجمتها الضباع في لحظة الولادة.. استطاعت الهرب، لكن الجراح كانت بالغة السوء فماتت.

واجه الشبلُ الحياةَ وحيدًا ضعيفًا لا يستطيع القيام بأمر نفسه، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، إن لم يكن بسبب الجوع فلكثرة الوحوش في البرية وإحاطة الأخطار من كل جانب.

رأته الشاةُ الطيبة فالتقطته ورعته وضمَّته للقطيع، أرضعته من لبنها وغذته ونمته رغم رفض زوجها الكبش، كان طيبًا شديد الحنان أيضًا، لكنه كان يدرك خطورة المستقبل. حكى لها حكاية مماثلة شهيرة في الغابة عن الذئب الذي ماتت أمه أيضًا وهي تلده فعطفت عليه شاة مثلها فغذته وأرضعته حتى نَمَت أسنانه ومخالبه فوثب عليها وأكلها وأكل صغارها.. لكن النعجة الأم قالت لزوجها إن الأسود أعظم كرامة من الذئاب...

كبرُ الشبلُ فصار أسدًا هائل الحجم، نمَت مخالبه وأسنانه، لكنه كان شديد الرفق بالأم والأب. أوصاه الأب قبل أن يموت أن يرعى القطيع مهما بدَّلَته الأيام. عاش بينهم وهو يظن نفسه خروفًا. لم يرد إلى ذهنه أن الخراف أعداؤه ولم يفكر في إيذائهم، كان يأكل مما يأكلون رغم عدم استساغته، ويشرب اللبن الذي تعافُّه نفسه لكنه اعتاد عليه. ملأته أخلاق الخرفان وأفكار القطعان، لم يدرك اختلافه عن رفاقه إلا عندما سمع لنفسه صوتًا مختلفًا. تجنَّب اللعبَ معهم خشية أن يؤذيهم بعد أن اكتشف أن قوته طاغية، نمت بيديه مخالب طويلة، وبفمه أنياب متفرقة وحادة، أثقل رأسَه فراءٌ ملبَّد، كثيرًا ما سمع لأنفاسه صوتًا شديد الاختلاف والنكور، والأدهى من كل شيء أنه لم يستطع أن يُمَأمِئ.

أسرَّ بذلك لخروف صموت يسمونه حكيم القطيع، هو أقربهم إليه وأكثرهم تفكرًا وصمتًا، كثير النظر لأعلى. فكّر الخروف الحكيم قليلًا ثم قال: «لعلك خالفت تعليمات القائد فعاقبتك السماء، عليك أن تجاهد حتى تجيد المأمأة».

في يوم من الأيام هاجمت الذئاب القطيع.. زُمرة وحشية مكونة من خمسة ذئاب ضارية تنذر بالفتك والوحشية، صاحت الخراف صيحة الفرار، وثغت الحملان ثغاء الهروب.

خاف الأسدُ كما خافت الخراف، جرى كما تجري الخراف.. سمحت له سرعته أن يبتعد كثيرًا.. وجد نفسَه يثبُ فوق شجرةٍ عالية لا يمكن أن تصلها الخرافُ ولا الذئاب. أحس بالأمان فوقف ونظر للخلف، رأى أحد الذئاب قد وثب على أمه الشاة الطيبة، سقطت بين قوائمه عاجزة عن الحركة متقبلة للموت.. لم يفكر حينها في طبيعته ولا في لعنة السماء؛ وجد نفسه شيئًا آخر.. زأر بصوتٍ عالٍ تردّد صداه قويًا في الوادي، تجمَّد الجميع من الرعب؛ الخراف والذئاب. وقف الذئبُ الذي هاجم الأم متجمدًا هناك. ما هي إلا وثبة أو وثبتين حتى كان عندها.. انقضَّ على الذئب المهاجم فلطمه لطمة واحدة أفقدته التوازن، هاجم بقية الذئاب فخضعت له جميعًا مرتعبة، جندَل الذئاب الخمسة تباعًا. فرَّت وكلها تعاني من جراح غائرة. وقف القطيع واجمًا؛ عرفوا أنه مختلف، بعض الأغنام ظنَّت أنها نجت من خطرٍ قليل إلى خطر أعظم، تبادلوا نظرات تبحث عن تفسيرٍ، انكمش الخروف الحكيم مرتعبًا.. طافت الحيرة فوق الرؤوس وامتلأت العيون بالدهشة الممزوجة بالفَرَق.. تمنّى أن يطمئنهم حَمَلاً حَمَلاً لكن انكماشهم أربكه.. أمه التي تعرف السرَّ أشفقت عليه من المعرفة.. وقفت هناك تمنحه حرية الاختيار...

وكان اختياره الفرار، لم يستطعْ أن يبقى بعد أن رأى جدار الخوف يحول بينهم وبينه.. لم يكن ممكنًا بعدها أن يعيش معهم؛ سرُّه لم يعد سرًا.. ذهب ولم يعد مرة أخرى.».

(٢)

ظلّت الأغنامُ الصغيرة تتواثب في مرح ونشاط. الخراف الكبيرة تأكل في هدوءٍ شبيه بالحكمة، ينظرون إلى الأمام كأنهم يستطلعون أسرار الكون.. يجترّون الطعام ليمضغوه مجددًا على مهل وأناة، وأحيانًا يتوقفون عن الحركة تمامًا بلا سبب ولا غاية، أما الحملان فكانت كعادتها، حرة طليقة، تثرثر وتلهو على هواها.

همست إحدى النعاج لصاحبتها أنها تشعر أنهم سيبقون هنا حتى الغروب، لم تسمعها لأنها صمّاء منذ أتمّت الشهر الثالث، آخر ما سمعته في الكون كان دويُ انفجار مفاجئ، ثم عاشت في عالمٍ من الصمت. تركتها النعجة وطافت حول القطيع مبتهجة تنشر الخبر.

تفصل هذه الربوة بين القرية والصحراء، منحدر طويل يفصل بينهما. أحيانًا تجفُ الأرضُ وتندرُ الحشائشُ فلا يجدُ القطيعُ ما يطعَمه؛ فيبحث لهم مرْوان عن مرعى آخر أشد خصبًا وأوفر عشبًا.. يضطر حينها للذهاب إلى مناطق أشد خطورة، أخطرها عند «بحر الجدال»، وهو بحر يبعد كثيراً عن الوادي وتكثر حوله الذئاب والضباع وكواسر الطير، سمّاه أهلُ القرية بهذا الاسم لأنهم دائمًا يتجادلون حول تحلية مائه المالح لري الأرض. وفي كل مرة، يبدأون النقاش هادئين ثم ينقلب النقاش إلى جدل صاخب .

اضطره البحث عن أرض معشبة إلى الذهاب إلى ربوة بعيدة. لم تكن هذه الربوة مكانًا آمنًا في الزمن البعيد، حتى اكتُشف فيها الماء فصَلَحَ عشبُها واستطابته القطعان، وكانت الذئاب والثعالب تسكنها قبل أن يعمرها الإنسان. اتفقت الثعالب والذئاب على كراهية الإنسان. الثعالب تسرق كل ما تطاله أسنانها من دجاج وبيض أما الذئاب فهي متعطشة دائمًا للدم، لم يعرف هذا المكان الحب والصداقة قبل أن يسكنه الإنسان.

ظلَّت الذئاب والثعالب تعتقد لفترة طويلة أن الإنسان، ذلك المخلوق الذي يُبدِّلُ جلده ويرتدي فوقه أغطية ملونة، قد سرق أرضهم وشردهم في البراري، لذلك يهاجمونه كلما رأوه، يتربَّصون بأغنامه ودواجنه كلما غفل عنهم بل ويتربَّصون به نفسه ويناصبونه العداء.

تشعر «أم مرْوان» بالقلق كلما ذهب إلى هذا المكان؛ توصيه دائمًا ألا يذهب إلى هناك كثيرًا؛ يحمل قلبها ذكرى مخيفة عن معركة حدثت منذ عهد غير بعيد في هذا المكان.

روت له أن أباه واجه الذئاب هناك، حيث الصحراء شاسعة والبرد قارس.. كان ذلك قبل أن يحفر الناس نبعَ الماء. تحكي له الأم هذه القصة كثيرًا؛ لتظل صورة أبيه ماثلة في ذهنه فلا ينساه. يحب الحديث عن أبيه ويعشق القصص التي ترويها أمه.. كلما أوقدت نارًا ببعض الحطب في ليالي الشتاء سرى صوتها دافئًا بذكرى أبيه، خاصة في حديثها عن تلك الليلة التي عاد فيها جريحًا لا يكاد يقوى على النطق وفقد كلبه العزيز بعد بضعة أيام...

«كان أهل هذه البادية قديمًا يبحثون عن مورد ماءٍ صاف؛ لا تقوم الحياة بغير الماء. كان الجفافُ شديدًا؛ الصغار ظمْأَى والأرض قاحلة والضروع جافة.. هدّد العطش الحياة، الجفاف معناه الموت.. الرجال يخرجون أول النهار بحثًا عن الماء ولا يعودون إلا آخره. تعرف أن البحر بعيد ومالح لا يصلح لري ولا سقاء، قرر أبوك أن يذهب إلى أبعد نقطة.. كان أبوك يا ولدي يحب الناس، أخذ القليل من الطعام لنفسه والكثير لكلبه وذهب، طلبت منه أن يأخذ طعامًا أكثر فقال:

«الجوع سيجعلني أبحثُ أكثر.»».

هناك، هاجمت الذئاب أباك. اكتسى صوت الأم بالألم والفخر. وصفت له أسنان الذئاب المدببة، زمجرتهم التي تبث الذعر وترجف القلوب، شراسة وجوههم الرهيبة قبل الهجوم، حدقات أعينهم المتسعة الثابتة الغضْبى.. يتسلل الذئب كالصمت، لذلك أسمُوه السّرحان.. أقدامهم لا دبيب لها، قلوبهم لا تعرف الشفقة، يشمُّون الدمَ على بعد أميال.. فجأة تجدهم أمامك، يهاجمون كقطيع، لا شيء يرهبهم إلا النار والرصاص. خطورة الذئاب تزداد حين يهاجمون في الليل.. لو رأيتهم وهم ينهشون الفريسة ستعرف أنهم لا يعرفون المحبة ولا الإيثار.. يأكلون القلب أولًا، أسنانهم الحادة تكسر العظام، فيهم السيد وفيهم التابع، مُرَتبون حسب القوة.. يتحركون كالرفاق، لكن أخلاقهم الحقيقية الدنيئة تظهر عند اقتسام الفرائس...

مازلت أذكر حين عاد أبوك قبل الفجر، شبحًا مرهقًا ثقيل الخطى، حزينًا مثخنًا بجراح، يملأ عينيه الإرهاق والقلق.. ويحمل فوق كتفيه الكلب البطل».

(٣)

خرج مرْوان من ذكرياته بناءً على أمر سلطان، كلبه الضخم. يكره هذا الكلب أن ينشغل عنه صاحبه، يشعر بالإحباط والملل لو تركه كثيرًا، يلفت انتباهه بالنباح مرة والعدْو حوله مرةً أخرى. مليء بالطاقة والنشاط والثقة واليقظة، لا يفرّط في الوقت المخصص للعب. خطواته واسعة رشيقة، أذناه طويلتان، شعره أسود لامعٌ غزير، كثيف عند ذيله، نشيطٌ يعشق البراح، ينسى دائمًا ثقل حجمه فيتطرف في الهجوم فيغضب منه مروان. لا يؤذيه سلطان بظفر أو ناب، لكنه يقذف بكل جسده نحوه فيؤلمه أحيانًا. كثيرًا ما تهرَّب مرْوان من فقرة اللعب، وكثيرًا ما انتهره لفرط قوته.. وبمرور الوقت أصبح سلطان يدرك موازين اللعب، من جهة الثقل ومن جهة مزاج صاحبه، يعرف نبرة صوته وطبقته، والأعجب أنه أحيانًا، يستطيع قراءة نياته ورغباته وإقباله وضجره.

نظر الكبشان إليهما فامتلأ قلباهما بالغيرة. قال الكبش الكبير:

«انظر، لقد شغله كلبه «بوبوس» ذو الخطم الأسود واللعاب المبلل».

يعرف هذا الكبش أن اسم «بوبوس» يغيظ الكلب. لا يليق بكلب حارس أن يُنادَى باسم جرو مدلل. تتخذ الكلاب أسماءً جديدة في كل مرحلة. يحب هذا الكلب أن ينادوه باسم سلطان؛ إيقاعه الفخم يطربه. يلعب مع الحُملان كأنه منهم، ينبح إن ابتعد واحد منهم. يتوقف بين حين وحين سارحًا ببصره في كل الأنحاء، متربصًا – رغم بهجة اللعب البادية عليه – بعدوِّهم الذئب، رغم إنه لم يرَ ذئبًا من قبل لكنه يعرفه؛ لا بد أنه صاحب الصوت الليلي العميق المليء بالطمع.

يسمع في الليل صوتًا يردده الصدى، ليس نباح كلب، بل عواء أشد عمقًا ومكرًا، يريد فرض السيطرة حيثما وصل الصوت. لا بد إنها حيوانات غادرة.. هذا صوت لا يعرف التواضع.

يعرفه أيضًا من تلك القصة التي روتها له أمه.

كانت أمه تجلس بجوار الحطب الذي تشعله «أم مرْوان» كل ليلة، يطلب منها دائمًا أن تعيد هذه الحكاية على وجه الخصوص، يعشقها منذ سمعها وهو جرو صغير؛ كانت عن مواجهة جده الكلب لاثنين من الذئاب حين خرج مع والد مرْوان من أجل الماء:

«كان البرد قارسًا يجمّد الحياة، كانت نُدف الثلج تكسو قمم الجبال والرمال والنخيل بثوب أبيض ناصع، لم يعبأ الإنسان بالبرد القارس، كان يريد أن يشق للإنسان والأغنام والطيور عين ماء.

تسلل ذئبان في الظلام ليقتلا الإنسيّ.. لا تعبأ الذئاب بالظلام والصقيع، بل تزداد قوة. وقف جدك الكلب يذود عن الإنسان انتصارًا للحق والحب. حاول الذئبان في البداية تذكيره بأصله الحيواني، أراداه أن يساعدهما في افتراس الإنسي، حدثاه عن الحرية واستعباد الإنسان للخيل والبهائم، والأرض التي سرقها ذلك المخلوق. لم يستجب لغوايتهما فهاجماه بكل شراسة.. واجه الاثنين معًا، كان أحد الذئبين سيدًا ضخمًا قويًا والآخر تابعًا أقل طولًا وقوة. حاول البشري أن يذود عن نفسه وكلبه بعصاه، التقطها الذئب السيد بأسنانه، أسقط الإنسيُّ على الأرض ثم وثب فوقه ليقتله.. قفز جدُك على الذئب فأسقط كبرياءه، وثب الذئب التابع فوقهما مدافعًا عن سيده.. واختفي الثلاثة بين الصقيع والعواء والنباح.. دارت معركة رهيبة، مازالت الرمال والنجوم والأصقاع تذكرها...

حامت في السماء غربان خبيثة تستحث الذئبين على قتل الكلب والإنسان معًا؛ تعشق الدَّم وتنتهز الفرص، نهّاشة تريد أن تأكل الضحية، تعرف أن فراء الكلب ولحم الإنسان رقيق؛ لذلك تمنّت أن ينتصر الذئبان. لكن جدك الشجاع صَمَد، تحمّل نهشَ أنياب حادة كالسكاكين وخمش أظافر لا تعرف الرحمة، انقشعَ غبار المعركة عن ثلاثة أجساد: واحد مقتول وثانٍ هارب والثالث جسد مليء بالجراح الغائرة. قتل جدُك الذئب السيد وفرّ الذئب التابع.. لكنه هو نفسه، جدك، كان مثخنًا بجراحه؛ توغلت أسنان الذئبين في ظهره وفخذيه.. سقط بلا حراك.

انبهرت نُدفُ الثلج بشجاعته، منحته جائزة التفوق، انشغلت النجوم بصقل نجمة فضية من أجله، وضعتها في محور الأبطال، مرصعة بنور من بريق الشهب، لكن حوافّها كانت مليئةً بالدموع شفقة على آلامه، انقبض وجه أوراق الشجر، امتلأ بالدموع.. كانت جراح الكلب مُهلكة.

حطَّت الغربان على الأرض، تحجل بخطوها الخبيث لتأكل الذئب القتيل الذي كانت منذ قليل تشجعه.

قضت الجراحُ على جدك بعد أسبوعٍ، وُسِم حينها بوسام البسالة، ليس وسامًا يُعلق كأوسمة بني آدم، لكنه صفة تُذكر كلما ذُكر الاسم، مكانة لا يعرفها إلا الخالدين الذين تظل ذيولهُم مرفوعة للنهاية.. هذا مجد عظيم، لا تناله إلا بواسل الكلاب.».

هناك عدوٌ آخرُ يخشاه مرْوان، نادر الظهور لكنه أشد مكرًا وصعوبة.. الصقر، ذلك الذي يهبطُ من السماء في مكر ودهاء.. خفِيّ كأنه الهواء، ينشب مخالبَه المعقوفة في ظهر الفريسة وما هي إلا لحظة حتى يطير بها في السماء، سريعٌ وحاسمٌ كأنه سهمٌ مُسَدّد، يهبط بغير ضجيج ولا تسمع له غقغقة..

تعلَّم مرْوان أن يتَرَبّصَ بالظل، ينظرُ لأعلى من حين لآخر؛ فسيدُ الطير يفرد جناحيه مثل السحابة.. ليس هذا مجديًا في كل الأحيان، فمكرُ الصقور أدهى من أن يحاطَ به.

تذكّر حين حكى له أخوه «مؤمن» أن صقرًا استطاع أن يخطفَ نعجةً أمام عينيه، لم يستطع إنقاذها من مخالبه، هبط كالبرق ثم طارَ بها في لحظة. قدرته على القنص شديدة الدقة، قد يتسلل الصقرُ من أعلى فيخطف الصيد من فم الثعلب.

لكن كلبه سلطان قضى على خطورة الصقر بمعاهدة أمان...

مرَّ بالوادي صيادٌ يصيدُ الطيرَ بنباله، يَلقُمُها الحجرَ ثم يصوّبها بدقة فائقة نحو الطيور. تربَّص عدة أيام بالصقر، لكنّ الصقور تطير في شاهق الهواء.. انتظر الصياد حتى دنا الصقرُ من الأرض ليشربَ فأعملَ نبالَه فيه.. أصابه من أول حجرٍ. انكَسَر جناحُ الطائر فلم يستطع الحراك. أقبل الصيادُ بغمامة يريد أن يُغَمِّي بها عينيه.. رآه الصقر ولم يستطع الهرب.. عزَّ عليه أن يخضعَ للأسرِ.. سيقضي بقية عمره حبيسًا يتسلى به الصبيان؛ تمنَّى الموت قبل أن يتمكنَ الصيادُ منه. رفع الصياد الغمامةَ ليضعها فوق عينيه.. وقبل أن يحجب الظلامُ العالمَ، انقضَّ كلبٌ على يد الصائد فخطف الغمامة.. جاء كالقدر الجميل لينقذَ كل شيء.. امتلأ الصياد رعبًا؛ لن تُجدي نِبالَه مع هذا الوحش الغاضب.. وقف الكلب بينه وبين الصقر مهددًا بأسنان بارزة ووجه غضوب. تابعَ الصقرُ في وهن! سدّد الكلب للصياد فكرةً تجول بقلبه وسؤالًا حائرًا؛ كيف تسعى، بكل هذا الدهاء، لتسلبَ الآخرين حريتهم لمجرد التسلية! امتلأ الصياد رعبًا.. عاد بظهره للخلف متمنيًا أن يمنحه الكلب فرصة النجاة.. انقلب السحر على الساحر وأصبح المُطاردُ طريدًا. عاد خطوة خطوة والكلب أمامه يرعبه؛ يمنحه فرصة خافتة للهرب ويدّعي أنه سيعُضَّه.. ترك له المجال أخيرًا ليهرب، ولم يعدْ إلى الوادي ثانية.

توقّعَ الصقرُ أن الكلب سيأكله؛ تربَّصَ كثيرا بقطيعه ولا بد أنه سينتقم منه. لكنّ الكلب فاجأه بوجه خالٍ من البغضاء، ممتلئًا بالسماحة. ظلّ بقية اليوم بجواره، تعهده بالحماية والرعاية. كان بجوار القطيع فاستطاع أن يشملهما معًا باهتمامه، جَلَب له الماء في وعاء صغير. التأمت جراحه قبل الغروب فاستطاع أن يعود إلى وكره.

***

رغم بُعد العهد بأخطار الضواري، فإنّ مرْوان يخاطر بالصعود لتلك الربوة البعيدة، خاصة حين يندر العشب. كل هذه الأخطار بلغته بالسماع، لم يشهد أيًا منها رأيَ العين.

يصبح الراعي بمرور الوقت محل ثقة القطيع، يتحركون بإذنه، يسيرون في الاتجاه الذي يشير إليه، يفهمهم ويفهمونه، يعرف حين يريدون أن يصحبهم إلى عين الماء وحين يريدونه أن يمنحهم فترة أطول بين المراعي، وهم يعرفون متى ينفد صبره فيأمرهم بالرحيل.

تحب معظم الحملان مرْوان، تعرف أنه فتى نقي مثل نور النهار، ولكن قلوب الخراف تختلف من واحد لآخر.. هناك خراف تكرهه، خاصةً ذلك الكبش الكبير ذا القرنين المقوسين؛ يكره قيادته لهم بالعصا.

«لماذا يستخدمها حين يشير وحين يهشّ؟ ولماذا يصدر ذلك الصوت الغريب من عصاته الصغيرة ذات الثقوب؟ ولماذا لا يداعبنا إلا عندما يريد هو؟ لماذا يسرق الألبان من ضروع الأمهات والبيض من الدجاج؟».

فهمت النعجة الصمّاء حديث الكبش الكبير، رغم إنها لم تسمعه، تعرف كرهه لمرْوان، أشار نحوه بقرنيه وهو يتكلم. رفضت عيناها إشارته لكنه انتهرها بخفض رأسه والتهديد بقرنيه فلبثت في مكانها خائفة، وجلست جلسة المطيع.

السبب الذي جعل ذلك الكبش الكبير يكره الإنسان هو شدة المحبة؛ كان لمروان شقيق اسمه «مؤمن» يعشق الخراف والخراف تعشقه، لكنه هجرهم فجأة، اختفي بلا سبب يعرفونه. أرهق الكبش البحث عن سبب لاختفائه، ما زال يذكر طعم حبات الفول من كفه الصغير الخشن، ويذكر أعواد البرسيم تتراقص بين أصابعه القصيرة وقد التمعت أوراقها بين خيوط الشمس.

هو الذي عيَّنه قائدًا، ميّزته صحبته له عن باقي الخراف، لم يكن يقودهم بالعصا، منحه شارة القيادة بينهم بكثرة صحبته. اختفى فجأة من دون سبب يعرفه ثم وجد أمامه مرْوان ذا العصا. لا يصحب هذا الراعي الجديد إلا النعجة الصمّاء. لماذا يقرر الإنسان وحده البقاء أو الرحيل دون استشارة القطيع؟

لم يكن باقي القطيع يفكرون بنفس الطريقة، لكن الكبش ذا القرن الكبير هو قائدهم، والقطعان لا تعرف معنى عصيان القائد...

غير هذا، كان كل شيء هادئًا ومبهجًا وساطع الجمال في هذا الصباح.

(٤)

انقلبت اللحظة الهادئة فجأة إلى اضطراب شديد، صوتٌ مرعبٌ فاجأهم، ثغت النعاج في هلع ومأمأت الخراف وانتشرت فوضى شديدة. صاح الكبش الكبير صيحة الفرار فتجمَّع القطيع بسرعة مشكِّلًا دائرة وقف داخلها كل افراد القطيع.

اهتزَّ سلطان قليلًا لدوي الصوت لكنه لم يشعر بالخطر، ظلّ ثابتًا رابط الجأش كما يليق بكلب حارس.. لم يشمْ رائحة خطر حقيقي.

أول ما طاف بذهن مرْوان هو الذئب.. لكن هدوء الكلب طمأنه، عرف أن الأمر بسيط، يعرف أن الخراف بطبيعتها تستهول الأمور. ذهب ليعرف سبب هذا الاضطراب فرأى عن بُعد صديقه «علّام»، أدرك فورًا أنه المتسبب في كل هذه الجلبة، يجرِّب الأشياء كعادته. ظهر جسم ضخم غريب أمام الأغنام فجأة، هو الذي يصدر عنه هذا الصوت الحاد المخيف.

اتجه مرْوان صوب الصوت.. وبالفعل وجد ما توقع.. لعبة ضخمة على هيئة سيارة يتحكم فيها صديقه علّام عن بُعد بواسطة «الريموت كنترول»، كانت مزعجة الصوت تتعثّر بين الصخور، لها مقدمة مدببة كنصل السكين، يصدر «شكمانها» صوتًا أشبه بدوي المدافع، وتطلق صافرةً تَصُمُّ الآذان.

زفرَ الكبش الأقرن زفرة غيظٍ، ثم قال بصوت يَسري من بين أضراسه حانقًا:

«الفتى الشمسي السمين! كم أتمنى أن تتاح لي الفرصة لأنطَح بطنه الكبير».

عندما اقترب منه مرْوان، حاول علّام أن يشركه في ضحكته العالية؛ لكن مرْوان كان حازمًا ومنزعجًا لانزعاج أغنامه. ظن علّام أنه سيبتهج باللعبة الجديدة فوجد صديقه غاضبًا؛ أراد أن يهدئ غضبه فقال:

– مالك انزعجت هكذا؟ لا تغضب.. أردت فقط أن أجرّب لعبتي الجديدة، أتريد أن تراها؟

– ألا يعنيك ما تفعله تجاربك هذه بالآخرين!

– الآخرون!! إنهم نعاج.

– أليست مخلوقات تشعر مثلي ومثلك!

– لقد خلق الله هذه الأشياء لنا.

– ليس لنعذبها، أتذكر يوم ذلك الشيء البشع بجوار نعجة نائمة؟

. عاتبتني ألف مرة من أجل هذه الصمّاء.

. ألست أنت السبب؟

ذات يوم، ألقى علّام فتيلًا صغيرًا مشتعلًا بجوار نعجة رقيقة نائمة، كان يسميه «الصاروخ»، عندما وصل الاشتعال لمنتصف الفتيل انفجر مُحْدِثًا دويًا هائلًا ففزعت، لم تحتمل أذناها الرقيقة الصوت فأصابها الصمم.

- أما زلت غاضبًا! خاصمتني طويلًا حينذاك!

- أريدك أن تكون رحيمًا.

اعتذر علّام ثم جلس، نسيا خلافهما سريعًا؛ بينهما الكثير من الوُدّ والتفاهم. صفاتهما –على اختلافها- منحتهما شبهًا.. ذلك التشابه الذي يصنعه الحب رغم تباين الملامح، فمرْوان بادي النحول يميل لونه إلى السمرة، ملابسه بسيطة، يعشق التأمل وإطالة الفكر، علّمه الرعيُ الصبرَ والأناةَ . أما علّام فيميل لونه بشكل عام إلى الحمرة التي اكتسبها من التغذية الجيدة وكثرة الأسفار. ملابسه تتسم بحسن الاختيار والأناقة، نشيط.. لكن نشاطه في معظم الأحيان مؤذٍ، أقصر من مرْوان قليلًا وأكثر سمنة.. يعشق فكّ الأشياء وتركيبها، ماهرٌ سريعُ البديهة لكنه كثيرًا ما أوقع نفسه في المشكلات بسبب فضوله.

ورغم اختلاف طبيعة عائلتي مرْوان وعلّام إلا أن بينهما تشابهًا خاصًا.. كلاهما فقد شقيقًا بشكلٍ ما. شقيق علّام وُلدَ غير مكتمل النمو، ظل يعاني من مرضه عامًا كاملًا، ووالداه يعانيان معه ويطلبان له الشفاء في كل الأماكن، لكن مات قبل أن يتم عامه الثالث. أما شقيق مرْوان فقد سافر بلا رجعة، قسَا قلبُه فجأة وكره كل شيء حوله، تَطَرَّف في الهجران فلم يرفق حتى بأمه. لذلك اتّخذَ كلٌ من الصديقين الآخر شقيقًا قلّما يفارقه.

(٥)

جلسا في نفس مكان جلسة مرْوان الأولى. غلبهما الضحك حين رأيا النعجة الصغيرة الصمّاء تتشمَّم السيارة في فضول. أخذ مرْوان «ريموت التحكم» خشية أن يخيفها علام..

قال علام:

– ألا تريد أن تلعب بالسيارة قليلًا؟

– أفضّل اللعب على نايي.

– أنت تُفضِّل الناي والأغنام والوحدة على الألعاب الجديدة.

– بل أهتُّم بألعابك، ولكنك تدفعني إلى كرهها حين تسيء استعمالها.

– أتدرى؟ أنا أيضًا أحبها قليلًا ثم أتطلع لغيرها، ثم إلى غيرها.. لا أشبع أبدًا.

– الرّعي والوحدة مهنتي، ومهنة آبائي.. أخشى أنها ستكون مهنة أبنائي ايضا.

– لكنك لا تتحرك؛ هذه ليست حياة.. الحياة هي اكتشاف الحياة.

– ولعلّ السعادة تكون في الرضا وحسن الاحتفاظ بما لديك.

– مرْوان، صاحبي العزيز، أَفِق.. ليس لديك سوى أغنام وكلب، وكان لديك قديمًا حمار، ما وجه القناعة في امتلاك لا شيء؟ إنني أتعجب دائمًا كيف ترضيك هذه الأشياء التي لا قيمة لها؟

– أتعرف! أحيانًا يدركني السأم من البقاء مقيدًا بجوارهم طوال اليوم، لكنني أعود فأقول، من للأغنام غيري! ثم إنها، كما قلت لك، حياتي وحياة أجدادي.

– سوف تبدل رأيك تمامًا حين يصل عمي من أمريكا ومعه لعبتي الجديدة المذهلة.

– أية لعبة؟

– أعجوبة العجائب، يقول عمي إنها تفعل المعجزات؛ «روبوت» يطير ويعوم، إنسان آلي كبير، ذراعه اليمنى مزودة بكابينة تستطيع أن تحملني للأعلى فأطير مثل العصافير وتستطيع أن تغوص بي في أعماق البحار فأرى العجائب..

– تحملك أنت بالتحديد؟

– تحمل من يركبها يا غنّام!

– حقًا! هذا عجيب.

– كل هذا بذراع واحدة، الذراع اليمني.

– والذراع اليسرى؟

– للأسف.. عاجزة تمامًا! يقول عمي إن المخترع مات قبل أن يتم صنعه، لذلك فهذه الذراع موجودة لأغراض شحن الآلة فقط.

– لا شيء كاملًا، مادام صانعه هو الإنسان.. أرأيت؟! أليست الأغنام أفضل؟

– لِمَ؟

قال مرْوان ضاحكًا: – لأنها تحرك يدها اليمني واليسرى.. تُرى، كيف سيكون شكل الأغنام من أعلى؟

– ما زلت تفكر في أغنامك أيها الراعي.. أحدثك عن العجائب.

– عجائب فعلًا.. لقد شغفت قلبي.. كم أتطلع لرؤيتها. أرجو أن تُشبعك لعبةُ عمِّك هذه المرة.

توقفا عن الحديث حين انشغلا بمتابعة الكبشين الأقرنين يتناطحان بقوة؛ يبتعدان ثم يعودان، كلٌ يقف في مواجهة الآخر ثم ينطلقان بأقصى سرعة ليصطدما بقرنيهما محدثين صوت ارتطام قوى.. ليس لهذا الصراع من غرض إلا استعراض القوة. طالما تواجدت الإناث، يحدث هذا دائمًا. خاف مرْوان عليهما من شدة التناطح؛ صاح صيحة يعرفانها، أتبعها نباح قوي من كلبه سلطان فتوقفا تمامًا.

أوشك النهار أن ينقضي وسرت نسمة باردة، انكمشت الأغنام في دائرة صغيرة كأنها تستحثُّهما على الرحيل؛ ربما أحسَّت بريبة ما.

قام مرْوان فتحرك القطيع كله في اتجاه واحد نحو الحظيرة. لكن سلطان أصبح مضطربًا فجأة؛ ثبتت عيناه في أحد الاتجاهات ورفع أذنيه ثم انتابه هياج وبدا عليه التوتر، أخذ ينبح ويزمجر، تصلَّبت أذناه وانتصب ثم ثبت في مكانه وثبتت عيناه فجأة. هذه إحدى المرات القليلة التي يناديه فيها مرْوان فلا يحفل به، ساد سكون ثقيل ثم أصبح نباحه أشد جهرًا.. كمن يخبر أحدًا بوجوده.

تبادل مرْوان وعلّام نظرة مرتابة، فكرة واحدة راودتهما؛ الذئاب تستعر نشاطًا بقدوم الليل. صدق ما توقعاه.. لم يكن ذئبًا واحدًا بل اثنين، أحدهما طويل يتخطى طوله المتر، عريض الكتفين، والآخر أقل منه طولًا وعرضًا، كلاهما طويل الذيل والأنياب، لو انقضّا على القطيع لقَتلا الأغنام في ساعة، «لا تمثل كثرة الأغنام شيئًا بالنسبة للذئب.».

زاد انكماش الأغنام والتهب حماس سلطان وعلا نباحه، انتصب ذيله وتسمَّر في مكانه تمامًا.. كانا يقتربان بدهاء، هذان هما صاحبا الصوت الحائر الذي يسمعه دومًا، هذا هو المخلوق الذي حكت أمُّه عنه.. توجَّه نحوهما في جسارة.. امتلأت الأغنام بشعور مقبض قاس...

– ذوو الأنياب والمخالب سيتعاركون، كلبنا البطل وحيد، ليتنا نستطيع المساعدة، قرون الكباش غير مجدية، فلنختبئ في خوفنا.. ضيّقوا الدائرة؛ لعلهم لا يروننا إذا لم نرهم.

الكبشان اللذان يكرهان سلطان انكمشا في خوفهما، تمنَّيا من كل قلبيهما أن ينجح الكلب في إنقاذ القطيع، تمنيا في هذه اللحظة أن يقولا له إنهما يعرفان أن اسمه سلطان.. صاحا معا:

«أنت سلطان، أنت سلطان».

في مثل هذه اللحظات يصير الكلب هو القائد الذي يحتمي الباقون خلفه، ينتقل إليه زمام القيادة بغير اتفاق.. يعرف مرْوان أنه سيدافع عنه وعن القطيع حتى الموت. وبالنسبة للذئبين، مثل هذا الكلب المقاوم عقبة حقيقية لا بد من القضاء عليها.

تردد الصدى المخيف مع اشتداد زمجرة الذئبين، كشَّرا عن أنيابهما. الذئاب والكلاب يتبادلون فرض المهابة بالصوت أولًا. ساد المكان عواؤهم. كانت الظلمة تشتد والرؤية توشك أن تصبح مستحيلة. الذئاب تتعامل مع الظلام كأنه شمس الضحى، ليست عينا الكلب كذلك. ارتبك مروان؛ ستكون معركة غير متكافئة، هذان معًا قد يقتلان سلطان.

حلّقَت غربان ثلاثة في السماء حولهم تنعق تشجع الذئبين.

تلاقوا، ثبَتَ كلٌ منهم على مسافة يتبادلون الزمجرة، أحاط الذئبان بسلطان. شراسة عيونهم وحِدَّة أسنانهم بعثت الرعب في الرمال والأحجار.. لم يعد ممكنًا لأحد أن يقربهم.. كل منهم كشف عن أسنانه وخشونة صوته ليرعب الآخر، نفش وبر الذئبين فازدادا انتشارًا، ثبتَ بؤبؤ عين سلطان. تحرّك أحد الذئبين في جهة بعيدة ليشتت انتباه سلطان فلا يدري من أين يأتيه الهجوم، تحرك الكلب معه قليلًا مع موالاة الآخر، قدرته على الالتفاف كانت أشد مرونة. اقتربت لحظة الصدام.. في هذه اللحظة قرر مرْوان أن يتدخل بعصاه مهما كلفه الأمر..

أعمَلَ علّام ذهنه سريعًا، استعمل «الريموت» فتحركت اللعبة الضخمة في حركة دائرية حول الأغنام محدثة دويِّها الصاخب، تشتَّت ذهنُ الذئبين. وجَّهَ المقدمة المدببة نحو مركز الصراع، أطلق «شكمان» المركبة أصواتًا أشبه بالطلقات، تردد الصوت في فراغ الوادي عاليًا، انفك الاشتباك بمجرد سماعه. الرعبُ الذي كان ساريًا في الأغنام من مداهمة هذا الشيء الغريب ومن صوته الشاذ انتقل إلى قلبي الذئبين. كان سلطان يعرف الصوت جيدًا فلم يرتبك، أحبت الأغنام الصوت والمركبة في هذه اللحظة. جفل الذئبان فابتعدا قليلًا قليلًا.. وجَّهَ علّام اللعبة لمطاردتهما فهربا بكبرياء، اتبعهما سلطان بنباحه ثم عاد جذلًا سعيدًا يريد أن يربت عليه صاحبه وهو يكاد ينطق زهوًا..

«هل رأيت ما فعلت؟».

(٦)

كانا يعرفان أن الذئبين لن يبتعدا، مناورة وبعد قليل سوف يعودان، ولن تنطلي عليهما الخدعة مرة أخرى؛ فليسرعوا بالرحيل. سار مرْوان خلف الأغنام يدفعها للأمام دفعًا بعصاه. وجَّه علّام لعبته في الجانب الأيمن بينما سار هو في الجانب الأيسر، طاف سلطان في كل الاتجاهات حول القطيع، المدهش أن الكبشين الكبيرين لم يكونا في قيادة الصفوف، بل اندسّا وسط القطيع، تقدمت أرشق الحملان وأسرعهم في مقدمة الصفوف. أسرعوا الخُطى حتى اقتربوا أخيرًا من عين الماء.. لم يكن هناك متسعٌ للتوقف للشرب.

ابتسم مرْوان ممتنًا لذكاء صاحبه، فخورًا بصحبته وظهور جوهره الحقيقي اللامع، كذلك امتنَّت له الأغنام. كانت تسميه فتى الشفق، وذلك لبياض وجهه وحمرة خديه. تبادل القطيع الهمس حول هذه اللعبة الجديد وتبادلوا الاتهام حول الخوف منها في البداية، قرروا أن يحسنوا استقبالها في المرة القادمة.

من ربوة عالية، لمحَا بيتيهما.. بيت مرْوان البسيط مبني من الطوب اللبن، بيت من دور واحد، تبرز من سطحه جذوعُ النخيل. وظهر بيتُ علّام شامخًا فخمًا، مبنيًا من حجر الآجر.

قبل أن يهبطا آخر جزء من منحدر الوادي سمعا أصوات اصطكاك قوي، جاءت من الجانب الذي يسير عنده علّام، كان الصوت صلبًا صِداميًا سمعه الجميع، لكن الخراف لم تشعر بالقلق منه. ما بين دقيقة وأخرى يدب الصوت كأنه بيت ينهار.. ثم يسود صمت قليل ثم يعاود الصوت الدبيب.

صدامٌ قوي كأن معولين من الحديد يتضاربان، أشبه بتناطح الكبشين، لكنه أشدّ. هدأ الصوتُ فجأة! لم يبقَ منه سوى احتكاك يبعث في الأبدان قشعريرة مرعبة. وجّه علّام كشاف لعبته نحو الصوت فرَأيَا أشدَّ المعضلات صعوبة على الحل.

ذكرا أيل يتصارعان على السيادة والإناث؛ يتناطحان ببأسٍ شديد. قرونهما كالتيجان وفروع الشجر. يريدُ كلُ واحدٍ منهما أن يدكَّ عرشَ صاحبِه.

يرتدّ أثرُ الصدمة في كل الجسد، تتداعى له جميع الأعضاء، لكن الكِبرَ يمنعهما عن التراجع، تشتبك قرونهما، تتعقد حتى يصبحا بلا حراك ولا فكاك.. وصلا لمرحلة العجز عن الحركة. قررا، بعد عشرات النطحات، أن يحتكما للنزال عن قرب.. تدافعا بقرنيهما حتى تداخلت وتشابكت القرون تمامًا فلم يعد فصلُهما ممكنًا، لا بد أنهما أدركا في تلك اللحظة تفاهة الخلاف، وكثرة الإناث. يمنعهما الكِبرُ عن الاعتراف بالهزيمة، ما زال التحدي في عينيهما قائمًا، رغم امتلاء عينيهما بمرارة التورط، كل هذا العمر لم يمنحهما الحكمة، لم يدركا قيمة التاج البديع على رأسيهما.. بسهوله جدًا، قد يصل ثعلب، ذئب، ضبع.. أي آكل لحم من الضواري التي تستعر نشاطًا في الليل فيأكلهما وهما في صراعهما متشابكين.

تجربة مرَّ بها الوادي آلاف المرات، تتكرر عند كل موسم تزاوج. منذ قليل رأى الفَتَيان أن الذئاب أدركت قيمة التعاون رغم شراستها، والآن يرون أحمَقَين يتقاتلان حتى الموت هباء.. رغم رقتهما. فكر مرْوان في فك وِثاقهما، لكنَّ مجرد القرب منهما مرعب.. هذه الحيوانات لا تألف الإنسان. وقد يدفعهما النفور إلى التورط أكثر أو إصابة من يحاول القرب منها إصابة قاتلة.. طلب مرْوان من علّام أن يجد حلًا سريعًا، لكن علّام ما زال مشغولًا بأمر آخر؛ الخوف من الذئاب ما زال يملؤه، كلاهما يعلم أنها ستعود. قدّم له علّام الأمر كمسألة رياضية لها حلّان، عليه أن يختار أحدهما، وبسرعة «إما أن تفكَ اشتباك هذين الأيلينَ أو تنقذ خرافك ونعاجك».

أدخل مرْوان القطيعَ في الزريبة الملاصقة للبيت والتي لا يفصلها سوى سور بسيط عن صحن الدار. جلب المزود ومزج فيه بعض العشب بالخبز اليابس والتبن فأقبل عليه أفراد القطيع في اعتياد ثم ذهب هو لتناول عشاء بسيط مع أمه؛ صحن من اللبن الدافئ وجبن «وبتاو»، وبجواره وضعت لسلطان طعامًا من بقايا عظام وخبز فُت بقليل من الشوربة.

***

عندما مر مرْوان في صباح اليوم التالي احتقن قلبُه من مشهدٍ قاسٍ؛ الدماء تملأ الأرض، أسنان وحوافر متناثرة، الغربان تملأ المكان.. تنعق بصوتها البغيض.. تلتقط بمناقيرها بقايا لحمٍ من جلد ممزق...

وغير بعيد كان المنظر الأشد إيلامًا...

لم يبق من الأيلين الكبيرين إلا عظامًا متناثرة ودماءً لم تشربها الرمال وقرنين كالتيجان ملقيين.. ملطخين بالدماء.. طحنتهما أسنان الضواري.

(٧)

وصل «العم» ومعه ابنته «ساندي»، فتاة صغيرة شقراء تعدَّت العاشرة بعام أو عامين، كان علّام ووالداه في استقبالهما.

أصاب علّام الحزن والوجوم لعدم وجود الإنسان الآلي معهما، ظل واجمًا لم ينطق بكلمة ترحاب واحدة. سأله العم عن سبب صمته فأخبره. قال عمه: إنه بداخل الصناديق.

تعجّب أن يكون الآلي الذي تحدثوا عنه بداخل صندوق، حدّثوه عن عملاق مزود بكابينة تستطيع الغوص والطيران. قال له عمه ضاحكًا:

– وهل تريد أن نحمل آليًا عملاقًا في الطائرة؟ لعلك كنت تظن أننا سنستقله بدلًا من الطائرة؟

خاف أن يكون في الأمر خدعة؛ أقنعه عمه أن ينتظر للغد، حين يتم تجميعُه.

– تجميعه؟!

– إنّه يا علّام تركيب وليس قطعه واحدة.. سترى كل شيء في الصباح..

أصابه الإحباط.. في مثل هذه الحالات، يشعر باحتياجه لصاحبه مرْوان؛ يقاسمه الحيرة حتى يطمئن. قال لعمه:

– أريد أن أدعو صاحبي مرْوان ليراه معي.

قال العم مندهشًا:

– أما زلت صديقًا لراعي الغنم ذاك؟

في اليوم التالي، عندما وصل مرْوان رحّب به «والد علّام» ووالدته. أما العم فقد بدا مستاءً لمّا رأى مرْوان، اشترى هذه اللعبة النادرة من أجل ابن أخيه، ليس من أجل آخرين.

بدا متقززًا من مظهر مرْوان ومهنته وملابسه البدائية. شعر مرْوان بذلك. أحس برغبة شديدة في الخروج، خاصة حين التقت عيناه بعين العم.. أحس والد علّام بحرج الموقف فاتجه نحو مرْوان وابتعد به عن العم ثم شرع في عتابه على مخاطرته بالذهاب إلى المنطقة البعيدة من الوادي، المرعى الذي تتسلل إليه الذئاب. أبدى إعجابه الشديد بشجاعة الكلب.

تعلل مرْوان بندرة ظهور الذئاب وثقته في رعاية المقادير. تدخل العم مرة أخرى وهو يقترب:

أما زال هناك من يفكر بهذا الشكل الغبي؟

فوجي الجميع بصلابة الكلمات. كان العم نموذجًا للرجل الجاف، آليٌ من البشر. ساد صمت ثقيل. حاول والد علّام أن يقضي على حرج الموقف بوضع يديه على كتف مرْوان وبدأ في شرح مقصد العم. حدّثه عن ضرورة الأخذ بأسباب الحيطة والتَّحَرُّز من الأخطار مع الوثوق في السماء:

«سينهشك الذئب قبل أن تتم صلاتك.. أتعرف أن أباك كان صديقي؟ كان شجاعًا مثلك، لكنه كان أكثر حكمة، أتعرف أيضًا أن كلبه قتل ذئبًا وجرح آخر؟ ساعده أبوك بعصاه، تحمّل الكلب جراحه حتى فرَّ الذئب الجريح، سقط بعدها الكلب منهكًا على وشك الموت. حمله أبوك فوق كتفه مسافة طويلة تعدت عشرة كيلومترات حتى وصل به إلى البيت.. ظهرا من بعيد كأنهما شيء واحد، كانت القرية كلها تنتظره، كان مرهقًا من البرد والمعركة وطول الطريق، رأيته بنفسي.. كنت أعرف أن أباك صلبٌ كالجبال، لكنه كان يلين في محبة كلبه. وضعه على سريره أسبوعًا كاملًا لم يفارقه، حاول علاجه بكل أنواع الأعشاب، لكنه لم يفلح، فتح الكلب عينيه مرة أخيرة.. تبادلا نظرة امتنان ثم نفق الكلب بعد فترة وجيزة. حزن أبوك عليه حزنًا شديدًا، دفنه بيديه وتلقى فيه العزاء، كما يليق بفارس نبيل».

أطربه ذكر أبيه فاستطال حديث أبي علام قائلًا:

– حدثني عن أبي أكثر.

– كان أبوك أسمر الوجه كأديم هذه الأرض، جاف الملامح كصعوبة الأيام والهواء حينذاك، كفه صلبة كالصخر، جادًا يرق قلبه عند رؤية المحتاجين من الناس والقطط والبهائم.. أبهجَ يومٍ في عمره كان يوم أن رزقه الله بأخيك مؤمن وأصعب أيامه كانت أيام الندرة في الأمطار.. عذّبَه جفافُ الأرض وظمأ الأراضي وتشقق شفاه القطعان.. أتعرف أنه ذهب إلى أرض الذئاب مرة أخرى.. كان عليه أن يُتمَّ ما بدأه.. علّم أمك كيف تُذخر البندقية وقضى أيامًا في شق الطريق إلى عين الماء وإحاطتها بالطوب والأحجار والحب والأمل.. نحن الثلاثة؛ أنا وأبيك وهذا العم كنا رفاقًا قلَّما نتباعد، مثلك أنت وعلام تمامًا.. كانت الأيام صعبة والمسؤوليات تزيد، اخترت أنا الذهاب إلى المدينة وقرر أخي الهجرة إلى أمريكا وقرر أبوك البقاء بجوار كل شيء هنا.. وظل حيث يحب حتى مات.

تناولوا الغداء ثم اتجه العم إلى الصناديق التي يتحرّق علّام شوقًا لفتحها. أخرج قطعًا متفاوتة الحجم والوزن والطول، رتبها حوله في نظام ثم بدأ تجميعها. أحاطته نظرات الانبهار والشوق وهو يرتبها قطعة قطعة. قضى وقتًا طويلًا في تجميع الأجزاء، نظر في كتاب الإرشادات كثيرًا. لم يكن التكوين واضحًا في البداية، تململ علّام من الوقت الطويل الذي اتخذه العم في فك الصناديق وتركيب القطع. ليس سوى حديد ضخم متراكم حتى الآن. احتاج العم إلى سلم لتركيب الرأس والذراعين، احتاج أيضًا إلى أنواع مختلفة من الروابط والبَرَاغِيّ . أدهشه أن علّام يحتفظ بكافة الأصناف، مساعدته لعمه أخرجته من ملل الانتظار قليلًا. لم يتوقف العم عن شرح وظائف الآلي أثناء تجميعه، تحدّث أثناء التركيب عن القدرة العلمية الرهيبة التي تقف خلف الآلي وعن إمكاناته الهائلة وقدراته التي بلا حدود.

كان يشرح مواصفاته وإمكاناته بنبرة خاصة ذات أداء مبالغ فيه. تقوست شفتاه لأسفل بطريقة عجيبة، كقارب صغير مقلوب، يحرك يديه في اتجاهات مختلفة. لم ينظر لمرْوان أثناء الشرح ولو مرة واحدة. كان يذكر ثمن اللعبة بين جملة وأخرى.. ردد السعر كثيرًا بلا مناسبة. تأفف والدا علّام حين ختم الشرح بجملة:

«لا تستهن أبدًا بمبلغ كهذا».

***

اتسعت عيون الطفلين دهشة حين بدأت ملامح العملاق تتضح.. قطعة بعد قطعة حتى اكتمل، خاصة حين اكتملت القطعة الأهم، الكابينة التي توجت يده اليمنى. هيئته جامدة بلا مشاعر، مخيف العينين.. لم يكن ذلك مهمًا أمام نظرات الانبهار في أعينهم جميعًا. الوجه الوحيد الذي كان خاليًا من الانبهار والدهشة كان وجه الصغيرة ساندي، ليس لأنها تعرف اللعبة جيدًا ولكن لأنها، كما قالت فيما بعد، إنها سئمت هذه الألعاب.

وقف الآلي عملاقًا أمامهم، ضخمًا راسخًا على قدمين قويتين، جسمه معدني صلب لامع.. تتوجه كابينة بيضاوية كبيرة تتسع لأكثر من فردين.. بداخلها لوحة مفاتيح معقده وأذرع تحكم. مصابيح مختلفة الأحجام والأشكال.

شرح لهم العم وظيفة كل مفتاح وطريقة الشحن. استوعب علّام كل كلمة قالها العم، لكنه كان عجولًا يريد البدء في استخدامه في الحال. حذرهم العم من العبث بمفاتيح محددة.. اليد اليسرى أشبه بقاعدة كهربائية لإعادة الشحن. بدأ العم في برمجته ليستجيب لأوامر «الريموت».. قال العم بعد أن أتمّ التركيب:

«ليدخل كل وحد منكما ليضع بصمة إصبعه وعينه وصوته».

فهم علاّم وساندي أن الحديث موجّه لهما. تقدمت ساندي بصفتها الأكثر تآلفاً مع هذه التقنية. وضعت إصبعها وبصمة عينها فأصدر الجهاز صوتاً آليا بقبول البصمتين. بقيت بصمة الصوت، الكلمة التي يختارها صاحب البصمة حسبما يحب فيعرفه الجهاز بها ويتبع أوامره. بدا أنها متحرجة من قرب أبيها ثم همست للجهاز باسم «مارجريت». تبدل وجه أبيها ثم جاء دور علّام فتوجّه للمكان الذي أشار إليه العم وقام بنفس الخطوات، غير أنه أصرّ ألا يسمع اسمه السري أحد. لم يعلقوا لكن أبوه طلب من مروان أيضاً أن يتقدم لنفس العملية فتقدم نحو الجهاز سريعاً وأنهى الخطوات بصوت سمعه الجميع لاسمه السري: «سلطان».

قال العم:

– لقد أوشك العلماء هناك على فعل المستحيل.

قال الأب: جدير بنا أن نحافظ على هذه المعجزة.

قالت الأم: ما فائدة هذا الجسد الضخم إذا كانت الكابينة هي الجزء الوحيد المهم؟

– هذا بسبب حجم بطارية الشحن، ليست ملحقة بالكابينة، إنها بطول نصفه الأيسر تقريبًا.

هنا ضحكت الأم وقالت: سوف أخفي أعواد الثقاب حتى لا يجرب فيه علّام ناره.

قال العم وقد استوقفته جملة الأم:

أمَا زال علّام مغرمًا باللعب بالنار؟

نظر علّام إلى والدته نظرة متوسلة؛ يرجوها ألا تُغضب العم منه.

كان مشتاقًا لبدء المغامرة ومعرفة قواعد التحريك.. تاقت نفسه للّحظة التي سيُسمح له فيها ببدء الحلم.. صمتت الأم خشية إغضاب ولدها.

الحقيقة أن أم علّام ترفق بعلّام دائمًا، رفقًا يصل إلى حد التدليل، منذ أن مات أخوه وهي تخشى على علّام من كل شيء.

كان لعلّام أخ شقيق يكبره بعام، أصيب بعد ولادته بالحمى الشوكية، سبَّبت له إعاقة أفقدته القدرة على الحركة، ثم مات بعد عام. ظل قلبها حزينًا؛ تحوّل حبها لولدها علّام إلى حد عدم إغضابه أبدًا حتى لو كان مخطئًا؛ تتجاوز دائمًا عن أخطائه وتخفي معظمها عن أبيه، الأب نفسه يتغاضى عن الكثير من أخطائه وقلّما يلومه.. أما العم فينظر إلى علّام على أنه التجربة.. عوضًا عن تجربة سابقة غير مكتملة.. لذلك يريد أن يوفر لابن أخيه كل أسباب السعادة.

أراد علّامُ يومًا أن يعرف كيف يمر الغاز عبر الخرطوم إلى الموقد فأشعل عود ثقاب، ثقب الخرطوم ووجه النار إليه، فاجأته النار فابتعد، سقط على الأرض لسبب لا يعرفه، ربما من الفزع.. هذا السقوط أنقذه.. لولا رحمة الله لاحترق وجهه. استيقظت الأم على صوت صراخه! فوجئت بخطٍ ناري يزداد ارتفاعًا، هرعت بغير تردد إلى صمام الأنبوب، أمسكت قطعة قماش مبللة فألقتها علي اسطوانة الغاز. قالت فيما بعد إنها لم تدرِ كيف تجرأت على فعل ذلك.. أغلقت الصمام الملتهب بيديها. ما زال بيدها بعض آثار احتراق.

وحاول علّام مرة أخرى أن يعالج عين قطة مغمضة فوضع قطرة فيها، رفع رمشها بيديه بقوة ثم سدد نقطة قطرة حارقة، خربشته القطة فأصابت يديه بجراح ثم هربت.. ازدادت القطة اقتناعًا بغباء الإنسان، ذلك المخلوق ذي الأذنين الملتصقتين. فرّت من البيت ولم تعد أبدًا ولم تسمح لإنسان أن يقتنيها مرة أخرى.

شرح العم طريقة الدخول في الكابينة، صعدوا إلى قمة اليد اليمنى بواسطة سلم تزود به جانب العملاق، عرّفهم طرق التحليق في السماء وتغيير الاتجاهات من خلال مقود عجيب التكوين، ثم أشار إلى أزرار التحكم في الهبوط والغوص في الماء: «سيرتفع أنبوب الأكسجين بمجرد الغوص في البحر».

لم يكن العم نفسه يعرف كل وظائف لوحة التحكم، شعر كثيرًا أنه تورط في هذا الشرح، استعان بكتاب التعليمات كثيرًا.

«هناك، في بلادي يصحبك المهندسون أسبوعًا كاملًا لتتقن التركيب والتحكم تمامًا».

شرح لهم طريقة إعادة الكابينة إلى القاعدة ثم شرح طريقة عمل كل ذلك بواسطة «الريموت»:

«بهذه الطريقة، يمكن لأكثر من واحد أن يكون بداخل الكابينة. ويمكن لآخرين أن يتحكموا فيها «بالريموت»؛ لا يتعارض التحكم من الداخل مع التحكم «بالريموت» عن بُعد؛ «فالريموت» لا يتعارض عمله مع عمل من بداخل الكابينة».

(٨)

كان علّام ومرْوان في قمة الشوق لبدء المغامرة، لدرجة أنهما لم يكونا يصغيان للشرح جيدًا. لديهما الكثير من الأسئلة لاستيضاح الوظائف لكنهما أجّلاها طمعًا في بدء المغامرة.

أصبح العم مرهقًا متعجلًا في شرحه؛ كان يريد أن يجيب على كل الأسئلة كأنه يعرفها جميعًا، لكن أسئلة الأطفال كثيرة.. أرهقوه؛ لم يعرف كيف يتخلص من ظنهم أن الكبار يعرفون كل شيء. ما زالت رحلة السفر الطويلة ترهقه؛ قال إنه سيكمل الشرح غدًا، سمح لهم برحلة تجريبية صغيرة.

اتسعت الكابينة للأطفال الثلاثة. اختار علّام البدء من أعلى قائلًا: لنبدأ بمغامرة السماء، أريد أن أطير.

كانت ساندي الأقدر والأكثر خبرة في استخدام لوحة التحكم.

بدأ المحرك في العمل محدثًا دويًا عاليًا.. أخذ بعد ذلك يرتفع شيئًا فشيئًا مخلفًا دخانًا كثيفًا. اختبأ مرْوان في خوفه حين بدءوا يرتفعون. انكمش في مقعده مشدوهًا بشكل مضحك. لم يستوعب أبدًا أن يطير هذا الحديد، شعر أن قلبه سقط وهم يعتلون الهواء.

بأي قوة يرتفعون وكيف؟ أهو في حلم أم حقيقة؟ ثم أصبح الإحساس بالحركة غير موجود لديه؛ شعر أنه معلق بين السماء والأرض. أضحك خوفه ساندي وأدهشها أكثر مما كانت تدهشها الكابينة، حاول أن يفتح الباب ليخرج لكن علّام نهره بشدة.

في جولة السماء، رأوا الأشياء من أعلى صغيرة، المسافات أضيق والصورة أشمل وأجمل. رأوها بأفكار مختلفة؛ المشاهد مبهرة، لا شيء سوى الانبهار والدهشة.. تعجبوا كأنهم يرون كل شيء لأول مرة، ثم تحول عجب علّام من مشاهد الحياة بأسفل إلى لعبته الباهرة، تعجب من قدرة هذه الآلة العجيبة على حملهم هكذا كالعصافير، من سرعتها ودقتها وكثرة عجائبها، امتلأ بها عشقًا، بينما كانت الجميلة ساندي مشغولة بالأماكن الجديدة التي لم ترها من قبل.

حاولت ساندي أيضًا أن تمس أحد الأزرار التي تثبت السرعة فلا تزيد باستمرار، لكن علّام دفع يدها بعيدًا. ملأه الإحساس منذ هذه اللحظة أنهما يفسدان عليه متعته، وأن الكابينة ضيقة لا تتسع لثلاثة أفراد ولا فردين.. هذه الأعجوبة لم تُوجد لمخلوق سواه. تململ من صوتهما وحجم جسديهما ولم يعد يشعر بالحرية.

قال مرْوان: ما أشبهنا بالعصافير.

رد علام: بل ما أشبهها بالطائرة.

أضافت ساندي: ما أجمل هذا المكان.. أنظرا.. أغنام!!

عندما أشارت ساندي لهذا الموضع نسيَ مرْوان هلعه قليلًا. رفع عينيه على استحياء ليرى عالمه. تتابع الأشجار والأماكن أشعره بالحركة. شيئًا فشيئًا أصبح أكثر اعتيادًا وألفة للمغامرة. تعجب من عجيب التكوينات وعظمة المخلوقات وإعجاز التكوين. شعر أن كل ما في الكون هو إثبات لعظمة خالقه.

قال لها مزهوًا: هذا هو المكان المفضل لدَّي لرعاية أغنامي.

تعجبت الفتاة وسألته أن يصحبها إلى هناك لترى الأغنام عن قرب فقال علّام ساخرًا:

عجبًا لكما، تتركان هذه الأعجوبة من أجل الأغنام؟

قالت ساندي: لقد تركتَنَا قبل أن نتركك.

– ها قد جاءتك راعية غنم أمريكية، ارعيا معًا.. أما أنا فلن أترك هذه الكابينة أبدًا.. هيا نغوص بها في الماء.

احتد النقاش بينهم، اتجه علامُ نحو «بحر الجدل» البعيد وقرر الهبوط بالكابينة. حطَّت فوق الماء فأحدثت صخبًا أزعج الأسماك. استقرت على صفحة البحر للحظة وسارت قليلًا ثم بدأت الغوص ببطء. بطريقة آلية، ارتفع أنبوب طويل فوق سطحها لجلب الأُكسجين.

في البحر العميق، لم يفتح أحدٌ منهم فاه من فرط الدهشة وجمال المشاهد. الأسماك والصخور والزروع وتعدد الألوان وانسياب الحركة والألوان الرائعة.. اتسعت أعينهم وأخرستهم الدهشة.. روعة البحر العميق كانت أبلغ من أي كلمات لوصفها. قضوا وقتًا أسطوريًا كالحلم.. كل ما كان يتحدث به العم من عجائب كان أقل من إمكانات الآلة. ما زال هناك الكثير من الوظائف تخفيها الكابينة.. مازالت تزخر بالأعاجيب. صرخ مرْوان: «ما أعجب هذا الكون.. أصبح لدينا آلة العجائب.».

قال علّام منزعجّا: لدينا؟!

تملكته رغبة قوية أن يدفعهما خارجًا. اتخذ جلسة تُضَيّق عليهما الكابينة وتمنعهما تمامًا من المشاركة.. اعتدل في مقعده بحيث لم يعد يمكنهما لمس لوحة التحكم.. فصَل نفسه عنهما تمامًا. أصبح شعوره بالضجر من صحبتهما حائلًا بينه وبين سعادته بالمغامرة.. صوتهما صار مزعجًا وملاحظاتهما مملّة. لم يعد حائرًا يريد أن يقاسمه أحدهما حيرته، بل مالكًا لمدينة ملاهٍ أثيرة يشاركه ألعابها من لا يستحق. فليعد هذا الراعي لربوته ولتعد هذه الغريبة المتأنقة الشقراء إلى بلادها البعيدة.

عادوا جميعًا ليقُصُّوا على آبائهم وأمهاتهم رحلتهم العجيبة، بهجتهم كانت أكبر من كل الكلمات؛ لم يترك علّام الفرصة لأحد أن يتكلم . كان صاخبًا وسريعًا ونشوان. سأله العم:

– ماذا ستسمي لعبتك يا علّام؟

– ماذا يطلقون عليها في أمريكا؟

– يسمونها كوزموس.

– إذا سأسميها «كوزموس»، وستكون لعبتي الأخيرة.

قال العم:

– ليس للألعاب آخر يا صغيري.

– لكنها تفي بجميع احتياجاتي.

قال مرْوان:

– أتظن أن لعبةً يمكنها أن تفي بكل احتياجاتك يا علام؟

رد علّام بصوت غاضب:

– أتكلم عن احتياجاتي أنا أيها الراعي، تمامًا كما تجد أنت كل احتياجاتك في الأغنام، طعامك من جبن الأغنام وشرابك من لبن الأغنام، تكسو أرض بيتك أوبار الأغنام، تغزل لك أمك في الشتاء دثارًا من صوف الأغنام، تحميها من الذئب لتذبحها أنت في النهاية.. لا بد أن الذئاب مندهشة جدًا من ادعائك حب تلك الأغنام.

نزلت هذه الكلمات متتالية كالصواعق على قلب مرْوان، أين كانت خافية وماذا أخرجها ومنذ متى تعيش داخل قلب صديقه!

هل كان يضمر كل هذا أثناء صحبته أم أنه وليد اللحظة؟

كان العم شاهدًا على قسوة الكلمات لكنه بدا مرحبا بتلك القسوة. غادر مرْوان في صمت.

(٩)

تأثر مرْوان بكلمات علّام.. راجعها كلمةً كلمة وهو عائد في الطريق، شعر بغُصَّة في حلقه وضيقًا في صدره ورغبة مُلِّحة في الصمت والوحدة، بقيَ في بيته يومين كاملين بلا خروج.. أسقمت نفسه ذكرى احتقار العم ووابل الكلمات القاسية من علّام.. كيف كان كل هذا في قلبه وهو يبتسم في وجهي!

انقضت أيام بغير أن يرى أحدهما الآخر. لم يعد علّام يمر عليه في ميعادهما اليومي.. أصبح لكل منهما طريقة وطريق؛ أحدهما استغرقته لعبته فشرد عن كل ما دونها والآخر أصبح شاردًا أيضًا عن أغنامه وفي نفسه ألم غامض. شعرت النعجة الصمّاء بحيرة صاحبها؛ راحت تتمسح به في مودة.

بعد شروق شمس أحد الأيام، طرقت ساندي باب بيته. فتحت لها أمه، فرحت برؤيتها، أعجبت بوجهها الأشقر وعينيها الزرقاوين. تعرف ساندي بعض الكلمات العربية، تعلمتها من أبيها ذي الأصول العربية. أعجبت بصحن دارهم الذي يحوي طيورًا كالبط والحمام، يتحركون بينهم كأنهم من سكان المكان، ويضرب النخيل بجذوره في أرض الدار في أمان؛ تنبسط أصابع قدم النخلة فوق الأرض وادعة ويخترق جذعُها السامق سقف الدار الخشبي ويتنقل الحمام بين النخيل.

رفرف الحمامُ في عشه متهللًا لوجود الفتاة القريب لونها من لون السحاب ورِقَّتِه.. يعشق الحمام مخالطة الأشخاص الجدد، أما البط فقد هرع خائفًا من ذلك الوجه الغريب ذي اللون المختلف.. رأى البط وجهها خاليًا من الحكمة وصفاء الوادي. أوعزت بطة لصاحبتها أن تنقرها، في ذلك الخط المرسوم مرتين فوق عينيها.

أطعمت ساندي الحمام بيديها.. حاولت مع البط، لكنه رفض تمامًا.. طلبت من مرْوان أن يصطحبها إلى المرعى.

اقتربا كثيرًا من المرعى الخصيب.. أصبح مرْوان أشد حذرًا في الذهاب إليه.

أدهشتها فرحة الأغنام بصحبة مرْوان ورِقَّتِه في التعامل معهم.. ليس مجرد عمل يؤديه، بل شغفًا يملؤه.. عندما جلسا وثبَت على قدميه نعجة صغيرة في طمأنينة وأمان. حكى لها قصة صمم هذه النعجة فازدادت حبًا لها واشفاقًا عليها.. وازدادت غضبًا من علام. أحبتها النعجة أيضًا؛ قلوب النعاج صغيرة سريعة الحب.

كانت ساندي ذكية أيضا في معاملة الكلاب بحيث ألِفها سلطان بسرعة؛ رغم قلقه من الأغراب وبطء تقبله لهم.. شمَّ الصفاء في طبيعتها.. وثب بقائمتيه الأماميتين كأنه يحتضنها.. أحب هذه الفتاة الرقيقة مشرقة البشرة، لا تعرف الكلاب الألوان مثل الإنسان.. البشر عندهم مشمسو الملامح مثل ساندي أو بلون الشفق مثل علّام.. وبينهما أصناف كثيرة حسب أطياف الضياء.

انتبه الغرابان الأسودان.. طارا مسرعين يبحثان عن الذئبين ليبلغاهما الخبر.

قضت ساندي يومًا مختلفًا عن كل الأيام التي قضتها في بيت عمها. لم تكن تجد شيئًا تفعله هناك؛ خاصة بعد انشغال علّام التام بكوزموس. عانت من الفراغ والوحدة وخافت أن تنقضي فترة الإجازة من دون أي جديد..

ذكرت له أن هذه الرحلة البسيطة تعدُّ أهم ما فعلته في هذه الإجازة.. أكثر مما أسعدتها تجربة كوزموس.

اتَّخذا أساليب عجيبة في تقريب أفكارهما. كانت اللغة عائقًا عسير التجاوز؛ تبادلا الشرح برأسيهما وقدميهما وعينيهما.. كانت تعرف بعض الكلمات العربية لزياراتها المتكررة لأسرة علّام، ولأن أباها نفسه كان يتكلم بلغته الأم كثيرًا، أما مرْوان فلم يكن يجيد الإنجليزية.. حاولا تبادل ترجمة بعض الكلمات فأضفي اختلاف ألسنتهما بهجة جديدة إلى الحديث.. مخارج الأصوات في لغتيهما شديدتا الاختلاف، بعضها موجود في لغة وليس موجودًا في أخرى، ومسمَّيات بعض الأشياء كانت عصيَّة على التقريب.. حتى الكلمات التي يعرفها كلٌ منهما في لغة الآخر كانت تحتاج إلى تعديل في النطق.. لكن كل ذلك كان بسيطًا ومبهجًا.. مثلهما تماما. التفتت ساندي حولها فجأة ثم قالت:

– أشعر أن هذا المكان ينقصه شيء هام.

– ما هو؟

– حمار.

أبدت دهشة بالغة لعدم وجوده ضمن القطيع.. صمت مرْوان قليلًا ثم أخبرها أن أمه اضطرت لبيع الحمار في الصيف الفائت لأسباب تتعلق بظروف الحياة لا يريد أن يذكرها الآن.. قال إنه مطمئن تمامًا لطيب معاملة المالك الجديد للحمار وأنه يزوره من حين لآخر.

شعر الكبشان الكبيران بانشغال الراعي عن القطيع فقال أحدهما لصاحبه «لقد انشغل عنا المخلوق الداكن ذو الأنف الممطوط بتلك الفتاة التي بقَّعَها النمش؛ حمقى، كل ما يميزهم تلك الأيادي التي تستطيع قيادة القطعان، لكنهم حمقى! يأكلون الطعام بعد أن يفسدوه بالنار.. لا أحد يعلم أين يخرجونه.. فليعُد هذا الراعي بنا لربوتنا ولتعُد هذه الغريبة الشقراء من حيث جاءت»...

وهكذا، بعض الخراف لئام؛ يتصيدون الأخطاء ويسيئون النوايا وبعض الخراف ساكنون لا يحبون الحركة.. وأكثر الصغار نشطاء، يعشقون مشاكسة أولئك الذين يظنون أن الحكمة كلها في إبداء الضجر. بدأ الكبشان اللئيمان في تزجية الوقت بالتناطح.. يدَّعيان اللعب بينما كل واحد منهما يريد أن يثبت للآخر أن نطحته أقوى وأنه الأحق بالقيادة.

تبادل مرْوان وساندي حديثًا مختلف الاتجاهات عما يحب كلاهما. حدثها أن نبي الإسلام كان راعي غنم.. حدثته أنهم يعتبرون نبي المسيحية راعٍ لكل البشر.. بدت ملامح الاتفاق بينهما كثيرة رغم اختلاف اللغةً والمكان والنشأة.

قالت حبة رمل تطوفُ في الأرض منذ آلاف السنين:

«إن نبي الله موسى كان يهشُّ على غنمه بعصاه».

لم تصدق الرمال حولها أنها جاءت من تلك البقعة المباركة من الوادي.. كثيرًا ما تتبادل الرمال الادعاء، لكن هذه الحبة العجوز كانت صادقة.

قالت ساندي:

«أتدري أن نوع كلبك أيضًا اسمه في لغتنا الراعي؟».

عندما تطرّق حديثهما إلى سلطان، تذكر مرْوان أن كلبه سريع الملل، يغضب إن لم يُشعره بالانتباه.. ناداه بصفرة خفيفة فجاء الكلب يعدُو مسرعًا، تلقاه مرْوان بصدره مواجهًا هجمته، وقعا معًا ودخلا في صراع مصطنع بهيج.. تقلبا على الأرض قليلًا ثم أفلت منه وجرى.. شاركتهما ساندي، أخذا يعدوان والكلب يعدو خلفهما.. تبادلا إلقاء كرة يحاول الكلب التقاطها.. نجح كثيرًا بوثبة فاتنة.

أرهق مرْوان وساندي اللعب مع سلطان فجلسا يستريحان قليلًا.. من نظرة واحدة برأس مائلة أدرك سلطان أنهما مرهقان فذهب يستكمل أنشطته مع الأغنام. حدثها مرْوان عن حبه لسلطان.. أخبرها أن أباه أيضًا كان يحب جده الكلب الباسل.

«دفع هذا الكلب عمره فداءً لأبي».

قصّ عليها القصة التي يعرفها عن الكلب القديم. قصّ عليها أيضًا قصة الأيلين الأحمقين.. أحزنتها القصة المؤلمة.. فكرة الصراع بين الحيوانات تصيبها بالغثيان.. لا بد للمخلوقات أن تجد طريقةً للتعايش معًا..

قال: «الذئاب هي من يستفيد من هذا الصراع».

صمتا قليلًا، كلاهما يبحث عن فكرة لتتوقف الحيوانات عن الصراع؛ اقترحَا حلولًا صغيرة، كتوزيع الطعام بشكل عادل على الحيوانات كي لا يتصارعوا على الطعام، ترتيب مواعيد ورود الماء للشرب حتى لا يتصارعوا على الماء، تخصيص أماكن رعي ولعب لكل فصيل. تحدثَّا عمّا يحب كل واحد منهما:

حدثته ساندي عن أبيها الذي انفصل عن أمها الأمريكية بعد حصوله على الجنسية الأمريكية.. الخلافات بينهما لا تنتهي.. لا تعرف الأسباب، لكنها تعيش معه فترة ومع أمها فترة أخرى. تمنت أن تتاح لها الفرصة لتعرّفه إلى أمها..

– أهم درس تعلمته من أمي هو أن قيمة الإنسان تنبع من داخله وليس مما يمتلك أو يرتدي.. أمي تحب الحيوانات أيضًا.

– هذا عكس أبيك!

– أبي يعشق الاقتناء.

– أليس أبوك عربيًا؟

– بلى.

– ظننته غير ذلك حين قال عن بلادكم بلده.

– أبي مثل علّام تمامًا، في هيئة أكبر، سريع الانبهار بكل شيء.

– وماذا عنكِ؟

– أنا، أحب بلادي جدًا.. لديَّ الكثير من الأشياء هناك.. أشياء لا أجدها هنا.. لكن هذا لا ينفي أنني أحببت بلادكم.. لديكم جمال مختلف.. في بلادي مثلًا.. لا تُتركُ الأغنامُ هكذا في رعاية شخص مثلك.. لا أقصد الإساءة، لكن لا بد من التدريب على التعامل مع الأغنام، نظام غذائي شامل ومروج معشبة وأطباء.. لا تترك الأغنام هكذا معرضة لخطورة الذئاب.

وتطرَّق الحديث إلى ذكر علّام.. أخبرها عن شوقه الشديد لرؤيته.. لولا موقفه الأخير لذهب إليه؛ يخشى أن يتكرر نفس الموقف. سألها

– كيف قضى علّام ليلته؟

– شغفه كوزموس تمامًا، حلَّق طوال الليل به.. نام في الكابينة.. وعندما أصبح عاد يحلق بها في السماء.. حتى الإفطار صمَّم على تناوله بداخلها.

– ومتى سيعود؟

– سيعود على موعد الغداء، هل تقبل اعتذاري عمَّا حدث وتثبت أن صداقتكما كبيرة؟

– كيف؟

– تأتي معي؟

قال مرْوان منشرحًا

– نعم.. وسوف أطلب منه أن يصحبني إلى البحر بواسطة كوزموس مرة أخرى.. لقد طغى علي الخوف في المرة السابقة.

****

عاد الغرابان مسرعين يقودان الذئبين إلى القطيع.. توقف الكبشان عن الصراع لإحساسٍ طرأ على قلبيهما بالخطر.. رأى الكبشان على بُعد كبير الغرابين فتوجّسًّا شرًا.

انتبه سلطان لرائحةٍ ما.. نظر إلى أعلى فوجد الغرابين اللذَين سمعهما بأذنه سابقًا يشجعان الذئبين على قتله.. تحرك في اتجاه الرائحة التي يستشعر منها الخطر.. كان الذئبان في نفس اللحظة يرتِّبان خطة الهجوم على القطيع.

انتبه مروان وساندي على صوت زمجرة مخيف.. القطيع يجري في جنون وهلع، كل الأغنام في اتجاه واحد خلف الكبش الكبير الذي انشغل بنفسه ولم يعنه أنهم خلفه، لكم تمنّى أن يلقي إلى الذئبين نعجة أو اثنتين ليرحلا. التفتا إلى الجهة التي يفر منها القطيع فوجدا الحيوانات الثلاثة على وشك الاقتتال. أُسقط في يد مرْوان.. الرعب هذه المرة أكبر.. سلطان وحده.. وساندي في خطر وليس علّام معه.. والذئبان في منتهى التحدي والإصرار.. لكن الله لطف؛ دوَّت طلقة في الهواء جهة الذئبين فارتعبا.. أخطأتهما الرصاصة فأسلما ساقيهما للريح.. ظهرت أم مرْوان تحمل بندقية أبيه.. قالت إن قلبها استشعر الخطر بلا سبب واضح فجاءت في الوقت المناسب.. طلبت إليه أن يذهب بساندي إلى بيتها في حين ستعود هي بالأغنام.

سارت الأم بالقطيع نحو البيت وهي تردد لنفسها:

« اقتربت الذئاب جدًا هذه المرة.. ما العمل؟ ربما يهاجمون الحظيرة في المرة القادمة».

(١٠)

عندما دخل الطفلان، ساندي ومرْوان بيت علّام فوجِئا بأم علّام تُقبلُ نحو مرْوان مضطربة وهى تقول:

– أدرِكنا يا مرْوان، لقد أوشك علّام أن يجنَّ باللعبة.

– ماذا حدث؟

– لم يتركها منذ ليلة أمس.. لم يأكل ولم يشرب.. والأدهى أنه صمَّم على أخذ «الريموت» من عمه ليتحكم فيها وحده.

– وهل أعطاه عمه الريموت؟

– بالطبع لا، أخذته منه.. لكنه داخل الكابينة ليل نهار.. يجول بها في السماء وفي البحار.. اذهب إليه يا مرْوان.. أريده أن يأكل فقط وينتبه لصحته قليلًا.

خرج مرْوان من المنزل قاصدًا الكابينة.. وجد علّامًا واقفًا على بابها، ملابسه متهدلة وشعره أشعث.. بدا مترنحًا شاحب الوجه كمن لم يذق طعم النوم لأيام.. صاح من أعلى:

– لن يشاركني لعبتي أحد.. اذهب من هنا.. عد من حيث أتيت.

قال مرْوان وقد شقّ عليه أن يرى صاحبه على تلك الحال:

– أنا لا أريد أن أشاركك لعبتك، بل أريد أن تعرف أن في العالم أشياءً أخرى غير كوزموس. تعال أنت إن شئت لتشاركني ألعابي.

– ألعابك؟ أي ألعاب لديك؟! اذهب إلى أغنامك وأخطام كلابك.

علّق العم حين أخبرته ساندي بما حدث قائلًا بهدوء ثلجي:

– لكل واحد ألعابه.. ومن حقه أن يختار من يشاركه لعبته.

ذهب مرْوان غاضبًا مرة أخرى.. حاولت ساندي أن تتبعه لكن أباها منعها، ثم استدعاها إلى حجرته.. استشعرت في صوته حدة لم تعهدها.. بدأ حديثه بعتابها على التأخر على الغداء ثم عاتبها على الخروج وحدها.. أخبرته أنها كانت بصحبة مرْوان طوال الوقت فقال:

– راعي الغنم! أليس هناك صحبة أفضل؟

– لم؟

– لا شيء.. لكن الناس يجب أن يصاحبوا من هم في مستواهم.

– وهل نصاحب رفاقنا حسبما يعتقد غيرنا؟

– لن أسمح بنقاش أكثر.. انظري إلى اتساخ ملابسك ورائحتك.

حاولت الأم وساندي أن يثنيا علامًا عن البقاء في الكابينة، لكنه رفض بإصرار ثم طار بها بعيدًا ولم يعد إلا في المساء حين أرهقه الجوع والعطش.. طلب من أمه أن توافيه بالطعام في كابينة التحكم.. ذهبت إليه ساندي، لم تكن لديه القدرة على طردها كما فعل مع مرْوان، لكنه لم يسمح لها بالجلوس إلى لوحة التحكم. وضعت الطعام أمامه ومضت.. وغلبه النعاس فنام في الكابينة.

(١١)

في طريقه إلى منزله، كان مروان حزينًا مهزوم الروح. أسئلة تعسة تملأ رأسه: لماذا أحيا هذه الحياة البائسة؟ كأنني جَدْيٌ بين الأغنام، رائحتي كرائحتهم، طعامي من ألبانهم ولحومهم، ملابسي لا تخلو من أثر نعجة أو من لعاب كلب، لا غَناء لي عنهم ولا غناء لهم عني، لعبتي الوحيدة التي عرفتها لم تكن سوى صحبتهم. أما علام.. هذا العم وهذا البيت وهذه الألعاب.. حياة زاخرة، بيت محكم الجدران والسقف.. أب راع وعمٌ عطاؤه بلا حدود.. لحظة واحدة للتفكير تثبت أن لديهم كلَّ شيء وليس لدَّي سوى غنم. لماذا عليّ أن أقوم في هذه الحياة بدور الهادئ الوديع القانع، بينما يتمتع الآخرون بكل شيء؟

قدّمَت له أمه الطعام قبل أن ينام، قصعة من خبز يابس فُت في لبن ساخن تعلوه القشدة، دخلت باسمة بالوجبة التي يحبها.. فاجأها بسؤاله:

– ألن نأكل أبدًا كما يأكل الناس؟

– وماذا يأكل الناس غير ما نأكل؟

– يأكلون الفاكهة، يسكنون البيوت لا الحظائر، ينعمون بالتغيير، يبدّلون طعامهم بين حين وآخر، لا تملأ ملابسهم رائحة الأغنام، لا يتدثرون بألحفة من ريش البط ووبر الماعز، لا يفرشون أرضهم ببسطٍ من جلود البقر، لا يمارسون حياتهم بين القش والروث.. الآن عرفت سرَّ رحيل أخي مؤمن؟

مؤمن!! ارتجَّ قلبُ الأم خشية أن يسير مرْوان مسار أخيه. تملّكه الملل من كل شيء فجأة وقرر الرحيل، كان في السادسة عشر وقتذاك، كانت على وجهه نفس هذه الملامح الغضبَى وقلة الرضا، تطرَّف قاسيًا وغادرت قلبه المحبة.. سادته أفكار شديدة القسوة والتطرف.. ملأها الكدر وملأت عينيها الدموع.. لكنها تماسكت وقالت بهدوء:

– عليك أن تلوم قلبك قبل أن تلوم العالم.. أتعرف ما فيه الآن؟

– لا أعرف.. ولا أريد أن أعرف.

– أنا أريدك أن تعرف.. إنه الحسد.

***

لم يخرج من بيته أيامًا، لم يعد يخرج لتمشية الأغنام. الليل والنهار يمضيان ولا يغادر ركنه في الحجرة الضيقة، لم يعد يتكلم كلمة واحدة طوال اليوم، بدت كآبته مزرية. حاولت أمه قدر استطاعتها تنويع مصادر الطعام، لكن فقر الحال وقلة الحيلة حالا بينها وبين ما تريد.. اضطرت للخروج بالأغنام بنفسها أحيانًا، سكن في عينيها حزنٌ وقلقٌ، فكر هو كثيرًا في الخروج للاعتذار لكن نفسه كانت منقبضة لا تستطيع الابتسام؛ ملأه الشعور بالبؤس وكره كل شيء حوله.

حاولت النعجة الصغيرة الصمّاء أن تتمسح به لكنه دفعها في غلظة.. وقعت! لكنها لم تسمح للأغنام أن تشمت بها.. تحملت سخرية وجوههم ونظراتهم الساخرة وقالت في صوت عال حاولت هي نفسها أن تسمعه:

– لا شأن لكم بنا، لا بأس من احتمال بعض الجفوة ممن نحب.

تبادلت الخراف الضجرة حديثًا ضجرًا.. كانوا جميعًا مستائين من قلة الخروج والشعور بالبراح.

«ما بال الإنسيُ يظنُّ نفسه مصدرَ الحياة، أيظن أننا لن نستطيع أن نعيش من دونه؟ يا له من مغرور!».

حاول الكبشان الأقرنان أن يثبتا نظريتهما القديمة إن الإنسان يصاحب الحيوان لمتعته هو وليس العكس:

«انظروا كيف أهمل بوبوس!».

تبادلا ضحكات شامتة.

قال الكبشُ الكبير:

«لقد أصبح شديد الشبه بأخيه».

ملأ الفراغ قلب سلطان.. حَدَا به الضجر إلى أكل البُسُط وقطع الفراء الموزعة على الأرض، جلس بلا حراك أيامًا طويلة، أقعى على قائمتيه الخلفيتين.. انتابه حالات هياج فنبح ونبح بصوت عال.. بالَ في غير الأماكن التي اعتاد عليها.. بقيَ بالساعات مستلقيًا على الأرض في ملل رتيب، أرسل عينيه أمامه تنظران في الفراغ، تحركت أهدابه بشكل متلاحق، سألت عيناه الأم عن سبب ما يحدث لكن عينيها لم تمنحه إجابة.. كانت تضع أمامه في الصحن بعض الماء فيلعقه بتكاسل ثم يهمله؛ زهد الطعام والشراب.. أكثر ساعاته كان يمضيها جالسًا باسطًا يديه وعنقه أمامه على الأرض في ملل.

خرج يومًا من الدار على غير هُدى. أخذته أقدامه نحو حظيرة الأغنام، لمحته الخراف قادمًا مبطئًا على غير عادته.. لم يكن خفيًا على الجميع ما يشعر به من غُبن ووحدة. تحدث إليه الكبش اللئيم في همس:

– انظر.. ها قد ضاق الإنسي بك كما ضاق بنا،

لم يجبه سلطان فاستأنف الكبش:

– دائمًا.. كما يقولون، نهاية غير مشرفة.. لا تحزن يا صديقي هذا هو الإنسان، منتصبٌ وضيقٌ وخائن.. ويرتدي أشياءً تخفي لون جلده الحقيقي.

في نظرة عين سلطان لمح الكبش أثرًا لكلماته.. وجد الوقت مناسبًا للنصيحة، قال بين الشماتة والأسى:

– هذا ما فعله أخوه من قبل.. رحل دون أن يلقي تحية وداع.. إنهم أنذال، لا يربتون عليك إلا لمصلحة.. لماذا لا ترحل؟ لو كانت لنا أقدامُك وسرعتك لرحلنا جميعًا.. أتذكر القطة؟

– أية قطة!

– تلك التي آذى عينيها الفتى الأحمر السمين.. لقد وجدت السعادة بعد أن رحلت عنه.

– ماذا قصدت بالنهاية غير المشرفة.

– مااء.. لا عليك.. لست مثلنا.. نحن الخراف نهايتنا مجيدة، نموت لغاية أفضل، ميتتنا قُربان.. ينتفعون بلحمنا ووبرنا، أما أنتم؛ الكلاب والقطط فتنفقون ثم تصيرون رِممًا.. يلقونكم في أقرب المزابل.

ضجر سلطان بحديثه فأكمل السير بعيدًا.. قد يشك في أي شيء، لكنه لا يستطيع أن

يتصور النباح بعيدًا عن صاحبه.. ليس سوى الوفاء، مهما حدث.

أيامٌ عديدة مضت والحياة تسير على هذه الحال، إلى أن دقّ الباب ذات صباح، فتحت الأم لتجد وجها باسمًا تحبه كثيرًا؛ وجه ساندي. رحبت بها، كانت مشرقة في ثوبها الأبيض وضحكتها البشيرة. سألتها عن سبب غيبتها فتعلَّلت ساندي بعذر رقيق قبلته الأم. استأذنت أباها لزيارة سريعة لمرْوان وسلطان والأغنام. تحرّجَت الأم أن تذكر لها حال مرْوان؛ ليس من الضيافة أن يتكدَّر الضيف بالأخبار الثقيلة. لكن ساندي كانت واضحة كما ينبغي لطفلة تتسم بالوضوح دائمًا، سألت ببساطة:

– أيمكنني أن أرى مرْوان؟

ابتسمت الأم وقادتها إلى الركن الذي يقبع فيه مرْوان منذ أيام.

لم يحفل لوجودها، سلَّمت عليه فرفع رأسه في بطءٍ وقال:

– هل أتيتِ لمشاهدة السيرك؟

– أي سيرك؟

– سيرك الحيوانات العجيبة، الراعي الأفريقي، العالم المسلّي.

– لا أنكر أنني افتقد كل هذا، لكن ليس بهذه الصورة.. جئت لأعتذرَ إليك عما بدر من علّام في المرة الأخيرة.

– مرة ثانية؟

– مرة ثانية.

– علّام لم يخطئ، لم يقل سوى الحقيقة.

– الحقيقة أنه أخطأ وأرجو ألا تكون غاضبًا.

– غاضب! من يغضب وحوله الخراف والكلاب والبط!

– لماذا تظن أن هذه الأشياء قليلة! إذا كنت ترى نفسك شيئًا تافهًا فليس للبط والخراف ولا علّام دخل بهذا.. هذا شيء يأتي من داخل الإنسان.. كابينة الآلي لا تمنح علّامَ تفوقًا.

صمت حين ذكرت الآلي.. تذكر غرور علّام به، تمنّى أن يرد له الإهانة. عاد إلى جلسته صامتًا، شعرت ساندي بالحرج.. أحسّت أن وجودها ثقيلًا فقررت أن ترحل.. ألقت كلمتها الأخيرة وهو تقوم:

– لم أكن أظن إنك بهذا الضعف.

أراد مرْوان أن يستوقفها لكنه لم يجد الكلمات. قبل أن تقوم بلحظة وجدت سلطان يعدو نحوها مبتهجًا، شمَّ رائحتها فجاء يخُبُ نحوها في حبور.. دسَّ رأسه في أحضانها.. وضع قدميه الأماميتين على كتفيها.. لامها بهمهمته على طول الغياب.. احتضنته معتذرة في شوق أنساها غضبها من صاحبه. قبلت وساطته تقديرًا لشجاعته التي أبهرتها في مواجهة الذئبين.. قبلت اعتذاره نيابة عن مرْوان.. اتجه من بين يديها نحو مرْوان.. رفع قائمتيه الأوليين على أكتافه فاشتمله.. قبَّله مرْوان في حنان.. هو أيضًا يفتقده كثيرًا. سَوَّى الكلبُ الأمرَ تمامًا.. عقد بينهما الصلح.

(١٢)

حان موعد عودة العم إلى أمريكا، سألهم عمّن سيتحكم في «الريموت»، تخوَّفت الأم أن يتطور أمر علّام للأسوأ، تشعر بالقلق من هذه الآلة التي أخذت ابنها أخذًا. طمأنها العم قبل السفر ألا خوف عليه، فالكابينة تعود إلى قاعدتها بواسطة «الريموت» من أي مكان تصل إليه. أخبرها أنه سوف يعود بعد أسبوعين بلعبة جديدة تُغنِي علّام عن لعبته هذه. صمّمت أن يظل «الريموت» بيديها هي.. رغم إنها لا تجيد استعماله.

طلبت ساندي أن تبقى حتى يعود أبوها، وافق على مضض؛ سيغيظ أمها الأمريكية أن تبقى ابنتها بعيدًة فترة أطول.. لو عاتبته سيتعلّل بأن هذا هو اختيار الفتاة.. قال لابنته:

– تعرفين شرطي لبقائك.

– سأفعل ما تريد يا أبي.

– فتاة رائعة.

– أخبر أمي أني أحبها وافتقدها كثيرًا.

لم يبدُ عليه أنه رحب بجملتها الأخيرة.. احتضنها ومضى.

طردها علّام من الكابينة في اليوم التالي. تجرأ عليها بمجرد سفر أبيها، رغم إنها مازالت الأقدر على التحكم في لوحة التحكم، كل إرشادات كوزموس مكتوبة بلغة إنجليزية لا يجيد قراءتها سوى ساندي.

ظل علّام محلقًا في السماء أو غائصًا في البحر، زاهدًا عن الطعام والشراب إلا ما يقيم الأود.. الجوع الشديد هو الذي كان يدفعه إلى الطعام، يتناول القليل ثم يعود، وكان مصرًّا على تناوله في الكابينة.. بلغ هوسُه بها حد الجنون.. لم يعد يريد غير كوزموس. نحلَ جسمُه واسوَد ما تحت عينيه. اضطر أبوه إلى حرمانه من كوزموس يومًا كاملًا.. كان يومًا أسودَ. إضرابه عن الطعام وعدم خروجه طوال ذلك اليوم من حجرته حدا بأبيه إلى التراجع.

***

في تحليقه أو غوصه، لم يعد يرى غير أعاجيب الغواصة.. لم يكن يندهش من السماء أو عمق البحار بقدر ما كانت تشغله إمكانات الغواصة.. وكان كثير التجريب في لوحه التحكم، حتى الوظائف التي لا يفهمها في لوحة التحكم، كان جريئًا عليها. وبالفعل، كانت عجائب اللعبة لا تنتهي. اكتشف فيها القدرة على تكبير وتصغير الأشياء من خلال شاشة معظّمة. كان يحلو له أن يخيف العصافير والأسماك فباتت الطيور تفرُّ بمجرد رؤية الكابينة الطائرة وكذلك الأسماك. اكتشف موضع مفتاح لم يخبره عمه عن وظيفته.. الكابينة مزودة بقاذفات من خرز قادرة على إصابة الأهداف عن بعد. يمكنها أن تصيد طائرًا صغيرًا وأن تقتل سمكة صغيرة.. بات يظن إنه امتلك العالم.

جفلت العصافير فأخلَت له السماء أوقات تحليقه؛ فضّلت الجوع عن مواجهة المارد الطائر. رآه الصقر من ذرى شجرة يعتليها، لم يكن ساذجًا ليصارع شيئًا لم يستبن طبيعته بعد، أضمر في نفسه مواجهته في وقت لاحق. في إحدى جولات السماء، أصاب رأس سلطان بإحدى هذه القاذفات.. غضب مرْوان بشدة، ذهب إلى بيته في نفس الليلة، في سورة غضب هدده بتدمير لعبته إن تجرّأ على إصابة كلبه وأغنامه مرة أخرى.. لولا وجود الأم لنشب بينهما عراك.

وفي بحر الجدل، كان غضبُ الأسماك بلا حدود، لكنها كانت أشجع وأذكى. اتفقت سمكة الضوء مع أخطبوط أحمر على أن ينصبا له شَرَكًا في الليل.. أضاءت فأتّبعها علّام مهاجمًا، قادته إلى منحدر مائي عميق، أطفأت السمكة نورها في عمق لم يُجدِ فيه ضياء كوزموس، أطبق الأخطبوط الضخم على الكابينة فلم تعد قادرة على الحركة، أصابها شللٌ تام. لم يدْرِ علّام ما الذي أوقفها، شعر بالاختناق والحيرة.. أحس بأذرع الأخطبوط فارتعب.. ظَلّ الموتور يعمل لكنها لا تتحرك في أي اتجاه. لولا أن الأخطبوط انزعج من صوتها، ووجدها شيئًا ساخنًا صلبًا من دون لحم ولا طعم ولا نبض حياة لما أفلته. أطلق حبرًا أسودَ حول الكابينة ثم تركها ومضى.

***

كانت الأم تطمئن على عودته في المساء وتتأكد، من خلال المفتاح الوحيد الذي تجيد استخدامه في «الريموت»، وهو مفتاح إعادة الكابينة إلى القاعدة، أن علّام قد عاد ونام..

في صباح أحد الأيام، سمعت صرخة قوية وصياحًا. صعد علّام إلى الكابينة وفوجئ أنها لا تعمل.. لم تعد تتحرك.. جنّ جنونُه ونزل يصرخ بأعلى صوته مناديًا أمه.. لكنها لم تستطع له شيئًا. ظلّ يصرخ ويضرب رأسه والهواء وقد تبدَّل لون وجهه وارتعدت أطرافه وأخذ يصيح في هلع.

خافت الأم فذهبت مع ساندي عند مرْوان وتبعهما علّام.. ما إن وصلا حتى صاح علّام في مرْوان:

هلّا تركت أغنامك قليلاً وأتيت معي؟

اندهشَ مرْوان.. فكر في هذه اللحظة أن يطرده من بيته ليردَّ له الإهانة، نبح الكلب نباحًا عاليًا.. أكان يقصد أن يهدأ مرْوان أم يلوم علّام على قذقه بالخرز؟

أخبرت الأم ساندي ومرْوان بما حدث. ذهبت معهما ساندي ورفض مرْوان الذهاب معهم. سرعان ما اكتشفت ساندي المشكلة.. لقد استهلك علّام طاقة الشحن كلها في أيام قليلة. قالت الأم:

– وما العمل؟ إنه يوشك أن يجنّ.

طمأنتها ساندي وقالت:

– كل ما الأمر أن الشحن نفد؛ لا بد أن نحمل الكابينة إلى اليد اليسرى على أن يبقى يومًا كاملًا في الشاحن. كانت المشكلة أن الكابينة ثقيلة جدًا.. لو كان بها بعض الطاقة لنقلها «الريموت»، أما الآن فلا سبيل إلا حملها.. كان لا بد من مساعدة شخص رابع أو أكثر.

ذهبت ساندي إلى مرْوان تطلب منه المساعدة لكنه رفض مرة أخرى، ساعدهما الأب حين عاد.

قضى علّام اليوم متململًا ضائق الصدر. ظل طوال اليوم قابعًا تحت قدمي كوزموس الذي أصبح قطعة حديدية لا فائدة منها.. توسّل إليه باكيًا:

– أي قربان ترجوه فأمنحك إياه راضيًا؟ استيقِظ صاحبي.. ليس للحياة طعم من دونك.

تمنّى عليه أن يصحبه إلى الأبد.. قضى الليل ساهرًا يرجوه أن يعود.

(١٣)

لم يحتمل أن ينتظر حتى يكتمل الشحن.. وصلت نسبة الشحن إلى أربعين في المائة فقط.. سحب سلك الشحن وطار بكوزموس في جنح الظلام من دون أن يستأذن والديه. كانت الأم نائمة وبجوار يديها «ريموت التحكم».

انطلق بالكابينة بأقصى سرعة وبغير حدود.. أراد أن يُشبع جوعَه وحرمانَه منه لليلة كاملة.. لم ينبئ أمه ولم يوقظ ساندي.. طار بعيدًا ولم يشعر بالوقت ولا بالمسافة التي قطعها.

معظم أوامر التحكم لا تعمل إلا باكتمال الشحن. بعد وقت غير قليل، لم يعد كوزموس يستجيب لأية تعليمات.. أصبحت الكابينة تهذي.. محاولاته لضبطه دفعته إلى الخطأ حين أغلق– بغير أن يدرى– أجهزة الأمان الملحقة باللعبة.

كلما شعر بالخطر أكثر زاد عبثه بالمفاتيح وأذرع التحكم باحثًا عن النجاة.. أوشك الشحن أن ينفد مرة أخرى، وطارت الكابينة على غير هدى مهددةً حياته بصدامٍ موشك..

ذهب بعيدًا فوق أشجار كثيفة.. شعر بالغُربة، أراد أن يعود إلى القاعدة فلم يستطع.. لم يدر كيف يتصرف! أخذت الكابينة تدور في اتجاهات مضطربة بغير أن يتحكم فيها.. اصطدمت في النهاية بشجرة عالية وتعلَّقت بين أغصانها المرتفعة فلم تعد لديه القدرة على تحريكها؛ علقت بين الأغصان.. تذكر حصار الأخطبوط. كان شديد الهزال.. الدوران المتتالي أصابه بالإعياء.. سقط مغشيًا عليه لفترة طويلة.. انتصف الليل ولم يعد.

صِدامه بالشجرة أغضبها، أيقظ أوراقها الوسنانة جفلت الطيور النائمة. تحت الشجرة كانت الذئاب تتضور جوعًا.. وعَدَت نفسها بوجبة شهيةٍ حين شمَّت رائحة اللحم البشري.. المخلوق الضيق منتصب القامة.. عرفته من رائحته:

– أليس هذا الذي خدعنا بذلك الشيء الحديدي المرعب؟ كان يتحرك بأمره.

***

ذهبت الأم تتفقد ابنها فلم تجده.. ارتعب قلبها وشعرت بالخطر، أسرعت إلى «الريموت» لكي تعيد الكابينة، لكنه كان عالقًا بعيدًا بين الأغصان فلم تعد الكابينة.. أخذت تضغط على مفاتيح «الريموت» بهلع وخوف. لم يكن مصدر خوفها هو تأخر عودته فقط فحسب، ولكن قلبها شعر بالخطر.

اهتزّت الكابينة بقوة حين حركتها الأم «بالريموت»؛ عبثها بالمفاتيح هزًّها.. استيقظ علّام من إغفاءته ليجد نفسه في الظلام الشديد. ملأه الخوف والحيرة.. تحسَّس جيبَه وأخرج علبة الكبريت.. أشعل أحد أعواد الثقاب فوجد نفسه في مكان موحش قفر.. الظلام يحيطه من كل جانب، الكابينة صارت سجنًا بيضاويًا خانقًا.. انطفأ العود بسرعة.. أشعل واحدًا غيره، سرعان ما انطفأ.. ازداد حيرة ورعبًا.. صرخ طالبًا النجدة في هلع طفولي.. لكن أحدًا لم يسمعه.. وضع بصمة إصبعه وعينه مرة أخرى فاستجاب الصوت في وهن. اقترب فمه من «المايك» ليضع بصمة الصوت صارخاً بها:

«علّام علّاااام».

لم يتغير شيءٌ.. شعر بالضياع. حاول أن يدفع زجاج الكابينة

بيديه، لكنه كان قد أغلق كل مفاتيح الأمان.. لم تسعفه أعواد الثقاب فقرر البحث عن شيء يدوم اشتعاله. أشعل قطعة قماش ثم ألقاها سريعًا.

شعرت الشجرة بالخطر حين توالت أعواد الثقاب.. غضبت لأنها لا تستطيع رفض من يحطّ عليها، ولا تستطيع الاختيار، استاءت أيضًا من رائحة الذئاب بالأسفل.

لم يكن قادرًا على رؤية الذئاب التي تعرفت إلى رائحته:

«الآدميُ مصابٌ بالهلع.. سوف يسقط قريبًا»

كانا ذئبين، اتفقا على تقاسم جسده وهما ينتظران.. كذلك يدَّعون الاتفاق دائمًا، لكنهم بمجرد الحصول على الفريسة، لا يتقاسمون سوى الطمع.

في هذه الأثناء أسرعت الأم لإيقاظ ساندي لعلّها تجد في «الريموت» وسيلة إنقاذ.. حاولت ساندي معالجة «الريموت» لكن المفاتيح التي أغلقها علّام في لوحة التحكم حالت دون استقبال أوامر إعادة الكابينة إلى القاعدة.. ضغطت على أحد المفاتيح وقالت:

– أستطيع فقط أن أفتح إحدى النوافذ من خلال «الريموت»، نافذة السقف.. ليس أكثر.

قالت الأم في لهفة:

– علينا أن نجده بسرعة.. فلنطلب مساعدة مرْوان.

بعد بقليل، كانت الأم وساندي ومرْوان وسلطان يجوبون المكان في ظلام دامس لا يقاومه إلا ضوء بسيط ينبعث من خلال كشّاف.. كانوا ينظرون في كل اتجاه، وينصتون لأوَهَى صوت، وسلطان يحاول أن يعوض بقوة السمع والشمّ ضآلة الرؤية. كان يشعر بالجوع لزُهده الطعام في الأيام القليلة السابقة. شرعت الأم تنادي علّامَ لعلّه يسمعها.

لم يسفر البحث لأكثر من ساعة عن شيء.. كان السَّيرُ بلا هُدى.. والبرد كان قارسًا، ندف الثلج تتساقط وتصعّب المسير، لكن الأم كانت تتبع اتجاهًا معينًا وهم يمضون خلفها. تبيَّن لهم على البعد في الظلام الكثيف دخان؛ ملأهم اليقين أن علّام هناك.. أسرعوا جميعًا نحوه ليجدوا الكابينة وقد تحولت إلى كتلة مشتعلة، حولها احترقت أغصان شجرتين ضخمتين، لولا الثلج المتساقط لاشتعلت الغابة.

كان الذئبان في انتظارهم.. شعَّت عيونهم في الظلام، بعيدًا عن النار بقليل، عند الشجرة التي تعلق بها علَّام. لم يبدُ أن البرد الشديد والثلج المتساقط قد أثّر عليهما.. فِراؤهما الكثيف يدفئهما.

لم يمضِ وقت طويل حتى رآهما سلطان.. لم يتردد للحظة في التصدي لهما. تقدم نحوهما بغير أن يحسب للمواجهة أي حساب؛ واجههما من الجهة التي تحول بينهما وبين أصدقائه.. أدرك فورًا أنهما نفس السيدٌ والتابع، مرتَّبان حسب القوة، تحيَّر الذئبان من إقدامه.. ترتيبه بين الوحوش لا يسمح له بهذه الجسارة.. خشيا أنه ربما يمتلك سلاحًا لا يعرفانه.. تستطيع الذئاب شمّ السلاح والخوف والدماء. وقف سلطان للحظة حين اشتد قربه منهما.. ألقى نظرة، لم يفهم أحدٌ معناها، نحو مرْوان ثم وقف أمام الذئبين تمامًا.

انتفضت أجساد الحيوانات الثلاثة فجأة وتواعدوا على مواجهة.. بدأوا تبادل الزمجرة.

مرة أخرى، مسألة رياضية أخرى أمام مرْوان، إما أن ينشغل بصراع الذئاب وكلبه وإما أن ينقذ صاحبه من الاحتراق، كلبه الحبيب.. صرخت الأم تنادي علّام بأعلى صوتها.. نداؤها حسم اختياره فاتجه متسلقًا الشجرة. تسمّرت قدما ساندي في المكان من شدة الخوف.. رؤية الوحوش بهذا القرب وفي مثل هذه المواجهة شيء لم يحتمله قلبها. الظلام دامس لا يقاومه إلا ضوء خافت ينبعث من بقايا الحريق.

أصبح لعواء الوحوش الثلاثة صوتٌ مختلف، يخرج من الأحشاء مليئًا بالقسوة.. شهيق وزفير وزمجرة خشنة.. انكمشت المسافة الفاصلة بين أنفي الذئبين وعينيهما فصار منظرهما أشد ضراوة.. تحدِّي الكلب أشعرهما بالمهانة.. لم تعد مهمتهما الوصول إلى تلك الوجبة البشرية فقط، ولا الانتقام من ذلك المخلوق الذي سرق أرضهم القديمة، بل تأديب هذا المتحدي المغرور وقتله أيضًا.

تذّكر أحدُ الذئبين موت أبيه.. تحدّث ذئبٌ قديمٌ عن نفس مواصفات هذا المخلوق الذي يواجههما الآن.. قالوا إنه لم يكن يخاف الموت.. بل كان يبدو أنه يحبه كما تحب الذئاب الحياة. قتل الكلبُ أباه، وتمّت محاكمة هذا الصديق بتهمة الهرب.. ظل موسومًا بالجبن حتى مات مخذولًا في منفى الهاربين بجزيرة الجبناء.

حوَّل الغضب وجه سلطان إلى مخلوق مرعب.. ثبت بؤبؤ عينيه ونفش ظهره.. صار عملاقًا وحشيًا بحجم المواجهة.. نبح نباحًا لم ينبحه من قبل، وأدرك الخروف أنه أسد.. انتفخ قلبه بمشاعر الإقدام والفداء.. ثبّت عقيدته على الصمود حتى اللحظة الأخيرة.. يفوز أو يموت.. يحظى بشرف الثبات للنهاية.. صار باسلًا، تمامًا كجده.. نفس هذه الدوافع كانت هنا منذ عشرين عامًا.

أوشكت ساندي أن تفقد وعيها.. احتَمت بأم علّام.. انتبه ذئب لرائحة الخوف.. عليهما الخلاص أولًا من ذلك الكلب المرابض.. وجبة كبيرة تنتظرهما لو تخلصا منه.. ليس بينهما وبين هذه الأجساد المنتصبة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها إلا القضاء بسرعة على هذا الخائن الذي انتمى إليهما.

علا صوت الزمجرة، أوشكت لحظة الافتراس القاسية على الاشتعال.. أحاطا بالكلب من جهتين، تحيّز للخلف قليلًا ليشملهما ببصره.. تمحور الذئبان على الجانبين.. أدرك سلطان أنهما لا يجيدان الالتفاف لاستقامة عمودهما الفقري.. ذيلاهما طويلان خبيثان. وأدرك الذئبان أن أسنان الكلب أقل طولًا ومخالبه قصيرة.. وذيله قصير، مليء بالشهامة.. ليس من سلاح يخشيانه سوى قلبه الحديدي الخالي من الخوف، عازم على الدفاع عن أصحابه حتى الموت.

استمرت المناورة طويلًا.. أتاح ذلك الوقت الكافي لمرْوان أن يتسلق الشجرة بمهارة فائقة، تعجب لها هو نفسه فيما بعد. لم يكن حل هذه المسألة الرياضية سهلًا كذي قبل؛ فقلبه كان موزعًا بين صديقه الغالي وكلبه الغالي.. لكن علّام هو من يستطيع القرب منه، أما الموت الذي يحوم حوله سلطان، فليس في استطاعة بشر مجرّد من السلاح أن يقربه.

أدرك حين صرخت الأم، أن حبه لصاحبه كبير.. أكبر من الغضب الذي سببته كلماته، أكبر من اللعبة التي اغترَّ بها علّام وتمنى هو أن يمتلك مثلها، أكبر حتى من ذلك العذاب الذي يشق قلبه خوفًا على سلطان.

توقفت الزمجرة وحان وقت الوثوب.. بدأ الهجوم، التحموا في صراع جبار لا يخرج منه الخاسر حيًا. في لحظة، أصبحوا كيانًا واحدًا يدور ويدور.. ثار حولهم الضباب فلم يعد أحدٌ يعلم ما يحدث داخل هذه الدائرة التي تمزق اللحم وتفري العظام، ليس إلا زمجرة وعواء.. طال وقت المعركة الدامية.. نهش وخمش، كرٌّ وفرٌّ وطحن عظام.. وصلوا للّحظة التي لا تسكنها الرحمة.. تحلقت غربان وبوم في أسراب كبيرة.. كلها تنعق وتنعب.. تحلم بالوليمة، تفضّل لحم البشر لأنه بلا وبر، يشجعان الذئبين بكل حماس...

أفاق علّام من غشيته، اطمأن لمّا وجد نفسه في أحضان صاحبه.. أحس مرْوان بالتقصير تجاه حبيبه الآخر سلطان. نزل بعلّام مسرعًا ثم اقترب من دائرة الرعب التي تعوي بداخلها الوحوش.. لكنه لم يستطع أن يهتدي لطريقة دخول.

قوة الذئب الفرد تفوق الكلب خلقة وتكوينًا، ضراوة أنيابه أشد فتكًا ومخالبه كالخناجر.. لكن سلطان لم يتوقف عن المقاومة.. ظل ذيله منتصبًا للّحظة الأخيرة.. النهاية المجيدة تضفي البهاء على الحياة، ليست، كما قال له الخروف، بلا معنى.. لكنه خروف؛ لا يمكن أن يدرك معنى الموت في ساح المحبة. نفس ما حدث لجده العظيم.. الأمر يتخطّى فكرة الشجاعة والجبن، يتخطّى ذلك إلى الوقوف بصف الخير حيث كان، لعلّ الذئاب من نفس الفصيل، لكنّ الخير أولى بالحماية.. لم يكن يبحث عن وسام، بل عن جدارة الوجود. اشتد عض الذئاب واشتدت بسالته، كلما مرَّ الوقت، تجمعت في السماء نجوم أكثر.

انشغلت السحب في السماء بصقل نجمة براقة في محور الخالدين، حروفها موشاة بحواف نورانية مدببة من بريق الشهب.. باسمة، تنبض بالحياة. صمتت الأصوات أو تكاد.. هدوء يقطعه لهاثٌ متسارع.. توقف الصراع. انكشفت سحب الضباب عن جسدين ملقيين بلا حراك، وأخر مقطوع النفس واقف على أقدامه.. سقط أحد الذئبين صريعًا، مات التابع الأضعف.. وسقط بجواره سلطان.. ما زال به رمق من حياة، ما زالت عيناه ترفضان الاستسلام، لكن الوهَن شديد. بحثت عيناه في هذه اللحظة عن مرْوان، أراد أن يلقي نظرة وداع على صاحبه..

ظل الذئب السيد في مكانه مستغلًا الفرصة لالتقاط أنفاسه.. يحشد نفسه للحظة حاسمة يقضي فيها على ذلك الكلب الذي قتل صاحبه.. استراح قليلًا، ثم قرر إنهاء كل شيء بعضة ناجذة.. تقدم نحوه في بطء.. كشّر عن أسنان غادرة تتوق للانتقام.. لم يكن سلطان قادرًا على أدنى مقاومة.

الحقائق قاسية، لا شك أن كفة الذئب رجحت، لكنَّ أعمالَ الخيرين تعودُ.. وتجود؛ انقضّ من حضن السماء صوب الأرض صقرٌ لا مثيل لشجاعته، اخترق الضباب والرياح والظلام، استطاعت عيناه أن تهزم الموانع كلها. أنشب مخالبه الجسورة في جسد الذئب السيد وطعن بمنقاره عينيه. للحظة، أصبح الصراع بين الصقر والذئب، دارا معًا دورة أو دورتين، الصقر عالٍ لكنّ الذئب قوي، وسلطان بلا حراك. صارع الصقر كالملاك المجنَّح.. منحهم الوقت الكافي لسحب سلطان من بين براثن الذئب. أوشك الذئب القوي على تثبيت الصقر.. وفجأة، دوّى صوت رصاصة..

وصلت أم مرْوان في الوقت المناسب.. أردت الذئب قتيلًا بطلقة متقنة سكنت الصدر تمامًا.

جَثَا مرْوان على الأرض يبحث عن نبض حياة في قلب حبيبه سلطان.. توجّه الأب والأم وساندي نحوه، أحاطوه والأسى يملؤهم، متخوفين أن تقضي عليه الجراح.. جلس علّام بجوار صاحبه؛ عينا سلطان غائبتان لا تشعران بشيء. وضع مرْوان يده تحت الذراع اليسرى للكلب.. تهلّل وجهه حين أحسَّ بنبض الحياة في قلبه.. أصرَّ أن يحمله على كتفيه حتى البيت.

(١٤)

في صباح اليوم التالي سألتساندي مرْوان.. كيف واتته القدرة على التصرف في ذلك الوقت العصيب وكيف لم يخف؟

قال مرْوان:

– لم أكن أفكر بعقلي وقتها.. على الإنسان دائمًا أن يفعل ما عليه.. الخوف يتملكني بعد انتهاء المواقف.. أظن أن سلطان أيضًا لم يفكر في طبيعته وفي قوة الذئاب.. كل ما شغله حينها كان تنفيذ مهمته.

قال علّام وقد أمسك بيد مرْوان في امتنان وحب:

– قبل مجيء مرْوان بساعة واحدة، كنت أوشك أن أختنق لولا أني وجدت إحدى النوافذ مفتوحة.. لست أدري كيف.

قالت الأم:

– أشكر ساندي.. «والريموت».

ذهبوا جميعا للاطمئنان على البطل الحقيقي لتلك الليلة: سلطان.

عندما دخلوا عليه، رأي في أعينهم ذلك الوسام، وسام البسالة.. حاول أن يقوم لتحيتهم لكنه لم يستطع.. الجراح قاسية.. أصدر من حلقه صوتًا مليئًا بالحنين والبهجة، يسمونه الحمحمة: حنين يصدر من الحلق مدفوعًا بنبض القلب الممتلئ محبة. لمعت الشمس في السماء مبتهجة بنجم ظهر في الليل، ما زال بهاؤه لامعًا.

***

استلزم العلاج أسبوعًا كاملًا، حاولوا فيه استعمال جميع الأعشاب المتوافرة في قريتهم وفي القرى المجاورة. اهتمَّت أمُ مرْوان بتدفئة الكلب وتغذيته على نحو خاص.. اختلطت عليها صورته بصورة جده الباسل وشعرت أن روح زوجها، أبي مرْوان، تستحثها أن تنقذ هذا المخلوق الذي تفانى أبوه في حمايته وتفانى حفيده في حماية ولده من بعده...

عندما وصل العم من أمريكا بلعبته الجديدة قرر علّام – حتى قبل أن يراها– ألا تكون له وحده، وأن يجعل «الريموت كنترول» دائمًا في يد مرْوان.

أخرج العم من حقيبته شيئًا قال إنه الأهم؛ علاجًا لسلطان.. آخر ما اكتشفته العلماء للنجاة من عقر الذئاب.

توجَّه العم بعد ذلك إلى مرْوان في حبور أبوي، انضم لحضنه علّام وساندي، ثم اتجهوا جميعًا نحو الباب آخذين بيد مروان ليروا الهدية التي أحضرها والد علّام..

على الباب كان حماره العزيز مسرّجًا بسرج جديد...

وفي الأسبوع التالي كان سلطان أول المودعين لساندي وأبيها

قبل عودتهما إلى أميركا.. وعندما حلَّقت الطائرة قرب السحاب، كان بجوارها الصقرُ باسطًا جناحيه في جلال.